تفسير سورة النور

دكتور/ خلف بن حمود بن سالم الشغدلي
أستاذ القرآن الكريم وعلومه المشارك
رئيس قسم الثقافة الإسلامية
كلية التربية – جامعة حائل

المقدمة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[1].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[2].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[3]، أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة.

إن النظر والتأمل والتدبر في كتاب الله تعالى عبادة وهداية، وصراط مستقيم يوجه إلى مراضي رب العالمين سبحانه وتعالى. وذلك أشرف ما بُذلت فيه الأوقات، وانشغلت بتثوير خيراته وبركاته العقولُ.

---

(١) سورة آل عمران: ١٠٢.

(٢) سورة النساء: ١.

(٣) سورة الأحزاب: ٧٠.

وصدق الصحابي الحَبْرُ عبد الله بن مسعود ﷺ حيث قال: "من أراد العلم فلْيُثَوِّرِ القرآنَ، فإن فيه علم الأولين والآخرين"(١).

والمتدبر في أسماء سور القرآن الكريم، يرى أن السورة تُسمى بشيء تميزت به لم يشركها فيه غيرها، أو ذُكر ولكنها تميزت في عرضه عما سواها.

وسورة النور تميزت بوصف الله تعالى بأنه نور السموات والأرض، فهو جل وعلا نورٌ، وحجابه نور، وهدايته في قلب عبده المؤمن نور، فنوره جل وعلا يبدد الشرك والجهل، ويهدي إلى الصراط المستقيم في العقيدة والعبادات والمعاملات والأخلاق.

فالسورة مليئة بأنوار الهدي والتشريع، التي شخّصت داء الانحراف الأخلاقي، سواء كان انجرافا مع شهوات النفس، وميلا بها عن جادة الاستقامة في العلاقات الجنسية وغيرها، أو اعتداءً على أعراض الناس قولا وفعلا، بناءً على الشك والظنون الكاذبة العارية عن الدليل، كما تضمنت هذه السورة الكريمة بعض صفات أهل الريب والنفاق، وأصحاب القلوب المريضة، والذين يُفسدون المجتمع المسلم ويؤذون المؤمنين والمؤمنات.

ووصفت السورة الكريمة الدواء لهذه الآفات؛ بما يكفُلُ سلامة الفرد والمجتمع. كما تضمنت أيضا جملة من الأحكام والآداب التي تتعلق بالستر والعفاف والاستئذان وغيرها. وذُكر في ثنايا أحكامها جملة من المواعظ التي ترغب وترهب أهل الإيمان والعقول، وسنذكر ذلك مفصلا في بيان مقاصد هذه السورة العظيمة.

التعريف بالسورة:

هذه السورة كلها نور وهداية، وآياتها كالجواهر الحسان، وواسطة العقد فيها، وقُطب الرحى آية النور، وبها سمّيت هذه السورة، وهي مدنيةٌ بالإجماع.

قال الإمام الداني: (مَدَنِيَّة وَلَا نَظِير لَهَا فِي عَددهَا، وكلمها ألف وَثَلَاث مئة وست عشرَة كلمة، وحروفها خَمْسَة آلَاف وست مئة وَثَمَانُونَ حرفا، وَهِي ستُّونَ وآيتان فِي الْمَدَنِيين والمكي وَأَرْبع فِي عدد البَاقِينَ.

(١) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي ١٩٧/٢. وانظر: المعجم الكبير للطبراني – من اسمه عبد الله – عبد الله بن مسعود الهذلي، حديث رقم ٨٦٦٤.

اختلافها آيتان: ﴿ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾، و﴿وَيَذْهب بالأبصار ﴾، وَهُوَ الثَّانِي؛ لم يعدهما المدنيان والمكي، وعدهما الْبَاقُونَ، وَكلهمْ عَدَّ ﴿ الْقُلُوب والأبصار ﴾.

وفيهَا – ممَّا يشبه الفواصل ولَيْسَ معدودا بِإِجْمَاع– موضعان: ﴿ لَهُم عَذَاب أَلِيم ﴾ بعده ﴿ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة ﴾ و ﴿ ولَو لم تمسسه نَار ﴾[1].

وقال العلامة عبد الفتاح القاضي:

هارون للكوفي والحمصي يرد والشام كالعراق والآصال عـــد

واعدد لهؤلاء بالأبصـــــــار ودع لحمص لأولي الأبصـــار[2].

قلت: وأنزل الله جل وعلا فيها جملة من الأحكام والآداب للتأديب والتهذيب والتربية والتصفية.

وخُصّت هذه السورة بالإنزال والفرض، ووصفت آياتها وأحكامها بالبيان في ثلاثة مواطن، في قوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ ﴾.

وروى الإمام الطبري بسنده عن الأعمش عن شقيق، قال: "استعمل عليٌّ ابنَ عباس رضي الله عنهما على الحج، قال: فخطب الناس خطبة، لو سمعها الترك والروم لأسلموا، ثم قرأ عليهم سورة النور، فجعل يفسرها"[3]

مقاصد سورة النور:

بعد النظر والتدبر في آيات هذه السورة العظيمة، اتضح لي ما يلي:

١- **اشتمال هذه السورة المباركة على معانٍ عِظام**، وأحكام جِسام لحماية المجتمع الإسلامي من الفواحش، ولحفظ الأنساب والأعراض، وذلك بتعظيم فاحشتي الزنا وقذف الناس في أعراضهم، وتغليظ العقوبة فيهما.

---

(١) البيان في عدّ آي القرآن للإمام أبي عمرو الداني– ص١٩٣.

(٢) الفرائد الحسان في عد آي القرآن لشيخ مشايخنا العلامة عبد الفتاح القاضي رحمه الله صـ٤٨.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١/٧٥.

٢- **كما تضمنت عظم جزاء النبي ﷺ**؛ وذلك بعظم ابتلائه في أذية المنافقين ومَن انخدع بهم له ﷺ، وذلك بما أشاعوه من الأخبار الكاذبة، والأحاديث الباطلة، والطعن في عرضه ﷺ.

٣- **النصُّ على براءة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وطهارتها.** قال البقاعي: "ومقصودها – أي سورة النور- مدلولُ اسمِها المودعِ قلبِها، المرادُ منه: أنه تعالى شامل

العلم، اللازمِ منه تمامُ القدرة، اللازمُ منه إثباتُ الأمور على غاية الحكمة، اللازمُ منه تأكيد الشرف للنبي ﷺ، اللازمُ منه شرف من اختاره سبحانه لصحبته، على منازل قربهم منه، واختصاصهم به، اللازمُ منه غايةُ النزاهة والشرف والطهارة لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، التي مات ﷺ وهو عنها راضٍ، ثم ماتت هي رضي الله عنها صالحةً مُحسنة، وهذا هو المقصود بالذات، ولكن إثباته محتاج إلى تلك المقدمات"(١).

٤- **يُلاحظ القارئ الكريم** لهذه السورة أنه بعد ذكر الزنا والقذف -والحد فيهما- وحادثة الإفك التي اختلقها المنافقون وأشاعوها، وخاض معهم فيها بعض المؤمنين، فأُتبع ذلك بالموعظة.

٥- **ذَكَر تعالى الوسائل التي تمنع من الفواحش،** من آداب الدخول على الناس، وغض البصر ومراقبة الله تعالى، وبيان المحارم من الرجال على النساء، وبيان الحرمات والحدود التي يجب الوقوف عندها، وكذلك تيسيرِ النكاح وسُبَلِه، والتضييقِ على السفاح وسبله.

٦- **ذِكْر جملة من الآفات التي تفتك بالمجتمعات، وسبل الوقاية منها:** كآفة فاحشة الزنا، فهي داء عُضال، ودواؤها الموعظة والتخويف والزجر، والتعليم والتأديب بآيات الاستئذان، وآداب الدخول، والأمر بغض البصر عما حرم الله، والذي يُورث حفظ الفرج.

(١) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور للبقاعي ٢/٣١٠.

٧- **الحض على النكاح وتيسير سُبله**؛ فإن كان وإلا فالحد الرادع، والجزاء المانع، قال تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢ ﴾، وأحاديث الحد والرجم الثابتة وستأتي.

٨- **ذكْر آفة الريبة والشك** في الناس عامة وفي الأهل خاصة، ويعالجها التروي، وأن يظن المسلم بالناس وبأهله خيرا، وإلا فالحدُّ الشرعي بالجلد والتفسيق والتكذيب، وذلك في القذف، و الملاعنة والتفريق بين الزوجين خاصة، وسيأتي بيان ذلك.

٩- **التحذير من آفة الخوض في أعراض المسلمين ونشر الإشاعات الكاذبة** التي تؤذي المؤمنين في أعراضهم، ويعالجها ويقابلها الموعظة في **قوله تعالى:** ﴿ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤ ﴾، **وقوله تعالى:** ﴿ إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ١٥ ﴾ ، **وقوله تعالى:** ﴿ لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ١٢ ﴾ ، **وقوله تعالى:** ﴿ وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ١٦ ﴾، فإن كان وإلا فالحد الشرعي.

١٠- **التنبيه على آفة الغضب على من أساء**، ويُعالجها الموعظة والحث على العفو والصفح، وبيان أن الله يُحبهما، والترغيب في ثواب الله تعالى عليهما، فهذا الأولى والأحرى بالكُمّل وأهل الفضل من الناس كأبي بكر الصديق ﷺ.

١١- **النهي عن آفة دخول البيوت بغير إذن** ولا سلام، ويعالجها الموعظة والتعليم والتأديب بوجوب الاستئذان، والندب إلى إلقاء التحية الطيبة وهي السلام الشرعي قبل الدخول، وأن ذلك خير لهم.

١٢- **ذكر جل وعلا آفة إطلاق البصر** على المحرمات، وأنه سببٌ للوقوع في الفواحش، ودواؤه للرجال والنساء غضُّ البصر عما حرّم الله تعالى، والخوف منه جل وعلا ومراقبته على كل حالٍ.

١٣- **ذَكَرَ تعالى آفة التبرج والسفور** عند النساء، ودواؤها الموعظةُ والأخذ بالآداب المرعية، والأحكام الشرعية، والتأدب بذلك والتستر والاحتشام.

١٤- **ذَكَرَ تعالى آفة البغاء والمتاجرة بالفروج والأعراض**، ويُعالجها الموعظة، والتخويف بالله تعالى، والتوجيه والتعليم بُحرمة ذلك وقبحه، فإن كان وإلا فالحد الشرعي.

١٥- **ذَكَرَ تعالى آفة الكفر والشرك بالله تعالى** فهي أعظم بلية، وأخطر رزيّة، وأكبرُ سيئةٍ، ولا يوجد سيئة تُحيط بابن آدم وتُحبط عمله إلا سيئة الشرك، قال تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾ ﴾[٢]، فأعمال الكُفّار والمشركين كالسراب في أرض فلاة، وأصحابها يتخبطون في ظلمات الشرك والجهل، ويُقابل ذلك الموعظة والأخذ بنور التوحيد، وإفراد الله تعالى بالعبادة، ﴿ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ .

١٦- **ذَكَر تعالى آفة النفاق والريب والشك**، واتباع هوى النفس، والاختيار في الأحكام الشرعية، وعدم تعظيم النبي ﷺ قولا وفعلا، وذلك بعدم طاعته في كل شيء، ودعائه باسمه المجرَّد ﷺ، ودواؤه الإيمان بالله تعالى وبرسوله ﷺ، والتخويف بالفتْنِ والعذاب في الدنيا بالحدود، وفي الآخرة بالنار وبئس المصير.

١٧- **اشتملت السورة على ذكْر صفات المنافقين، وهي:**

أ- ادعاء الإيمان بالله تعالى وبالرسول ﷺ باللسان والإعراض عنهما بالقلوب والأبدان.

ب- عدم الطاعة والتشهي في الأحكام الشرعية.

ت- الإذعان للأحكام الشرعية إن كانت موافقة لمقاصدهم ومصالحهم.

ث- الريبة والشك وسوء الظن بالله تعالى ورسوله ﷺ.

ج- الظلم.

ح- كثرة الحلف والأيمان عند كل حدَث أو سؤال.

---

(١) سورة البقرة: ٨١.

(٢) سورة المائدة: ٥.

خ- إظهار الطاعة والقناعة مع إبطان المعصية والبغضاء.

١٨- **كما اشتملت السورة على ذكْر صفاتُ أهل الإيمان والمفلحين الفائزين، وهي:**

أ- **الـــرضا والتسليم لأحكـــام الشرع القويم**، وذلك بطاعة الله ورســوله، قــال تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

ب- **تعظيم النبي ﷺ قولا وفعلا**، قال تعــالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًاۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًاۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ .

ت- **التذكرُ والتدبر والتعقل:** فالمؤمن دائم الذكر والتسبيح لله تعالى بلسانه وقلبه، لا تشغله تجارة ولا بيع، قــال تعــالى: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ﴾، ودائم التذكر لأوامر الله تعالى فيمتثلها، ولنواهي الله تعــالى فيجتنبها، قال ﷻ: ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾، وقال جل ذكره: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾، والمؤمنُ دائم التــدبر والتفكــر فــي مخلوقات الله وآلائه، ففي ذلك عبرةٌ لأولى الأبصار، ودائم التعقــل بفعــل مــا ينفعه في الدنيا والآخرة، واجتناب ما يضرّه في الدنيا والآخرة، فقــد قــال الله تعالى بعد ذكر شــيء مــن الأحكــام: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ .

ث- **تعلّق قلوبهم ببيوت الله تعالى وعمارتها وتعظيمها**، قال تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ ﴾ .

ج- **خشية الله تعالى والخوف من لقائه**، قال تعالى: ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

١٩- **ومن المعاني الظاهرة، التحذير من حبائل الشيطان**، ومن الوقوع في مكائده، واتباع خطواته.

٢٠- **ومن هدايات هذه السورة العظيمة** ضربُ الأمثال، التي توضح المقال لأهل الإيمان، وتكشف ضلال الكفر والطغيان، وظلمات الجهل والشرك والبهتان.

كما في قوله تعالى: (ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾)، وقوله تعالى: (وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ۚ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾).

٢١- **من أعظم المعاني، وأبرز المحاور في هذه السورة: الوعدُ للذين آمنوا بالتمكين والاستخلاف في الأرض، إن حققوا شرطه**؛ فإن التحلّي بالآداب الشرعية، والوقوف عند الأحكام المرعية مع الإيمان بالله تعالى وعبادته وحده لا شريك له، والقيام بفرائضه، وأركان دينه، بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الرسول ﷺ، والوقوف حصنا منيعا دون الفواحش، من أبرز أسباب التمكين والاستخلاف في الأرض وتحقق الأمن في جميع صوره، ولهذا جاء وعدُ الله بالتمكين كالتاج على رأس هذا الوعد لمن أخذ بأسبابه.

٢٢- **عقب جل وعلا - بعد الوعد بالتمكين للذين آمنوا- بالتهوين من شأن الكفار،** وبيّن أنهم غير مُعجزي الله تعالى.

٢٣- **اشتمل آخر السورة على رفع الحرج في الأحكام الشرعية،** كالجهاد وغيره عن أصحاب العاهات، وجواز الأكل معهم، وجواز الأكل من بيوت الآباء والأمهات والإخوان والإخوات والأعمام والعمات والأخوال والخالات، وما وُكّل عليه الرجل، وبيوت الأصدقاء، وجواز الأكل جميعا أو أشتاتا.

٢٤- **خُتمت هذه السورة العظيمة بتعظيمِ النبي ﷺ، والحذر من مخالفته، وأنه ليس كغيره من الناس، وبيانِ أن لله ما في السموات والأرض،** فهو الخالق المالك المُدبر، وبيانِ إحاطة علمه تعالى بكل شيء، والموعظة والتخويف بالرجوع إليه والوقوف بين يديه؛ ﴿ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٦٤ ﴾ .

منهجي في البحث والتفسير:

وقد سرتُ في تفسير سورة النور على النحو التالي:

١- قسمت السورة إلى مجموعات، كلُّ مجموعةٍ تتضمن آيات، وجعلت لكل مجموعة عنوانا.

٢- أبين المعنى الإجمالي، وأميطُ اللثام عن غريب الكلمات.

٣- أُنبِّه على القراءات المتواترة في الفرش خاصة، واعتمدتُ في ذلك كتاب النشر في القراءات العشر للإمام المحقق محمد بن الجزري رحمه الله؛ فهو إمام الفنّ وأستاذُهُ، وقد جمع في هذا الديوان أصح الروايات القرآنية على وجه الأرض، وهي قرابة الألف، كما قال في طيبته:

وهذه الرواةُ عنهم طُرُقُ أصحُّهَا في نشْرِنا يُحقَّقُ
باثنين في اثنين وإلا أربع فهي زُهاء ألف طريقٍ تُجمعُ[1]

ثم أُوجّهُ هذه القراءات من كتب التوجيه الأصيلة والمعتمدة عند أهل الفن؛ ككتاب العلامة أبي منصور الأزهري، وكتاب الكشف عن وجوه القراءات السبع للعلامة مكي بن أبي طالب القيسي، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج، وغيرها.

(١) طيبة النشر في القراءات العشر للإمام ابن الجزري ص٣٣، البيتان: ٣٤، ٣٥ من الألفية.

٤- أوضح بعض الأحكام والمقاصد المتضمنة، مستعينا بعد الله بما صحَّ من الآثار والأخبار، وأقوال الصحابة رضوان الله عليهم والسلف الصالح.

١- أختم كل مجموعة من الآيات بما ظهر لي من الفوائد.

٢- قد تَشْكُل بعضُ النصوص؛ فأوردها مشكولة للتيسير على القارئ.

فالحمد لله الذي بنعمته الصالحات، وأسأل الله جل وعلا أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، وأن ينفع به، وأن يتقبله قبولا حسنا؛ كما أسأله جل وعلا لي ولجميع المسلمين العلم النافع والعمل الصالح والختام الحسن.

الدرس الأول

(الحكم في فاحشة الزنا)

قال الله تعالى: ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ ﴾.

مناسبة السورة لما قبلها:

قوله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا ﴾[1]، كل ذلك رحمة منه لخلقه ليرجع منهم من قضى بسعادته، ثم ختم بقوله: ﴿ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[2]؛ فابتدأ سبحانه هذه السورة بأنه منَّ على المخاطبين ببيان ما خلقوا له من الأحكام لأنهم لم يخلقوا سدى، بل لتكاليف تعبدهم بها ترفع التنازع وتحسم مادة الشر، فتوجب الرحمة والعطف بسلامة الصدر بما فيهم من الجنسية، فقال مخبراً عن مبتدإ تقديره: هذه سورة أي: عظيمة)[3]، والله أعلم.

وقال العلامة السيوطي: (أقول: وجه اتصالها بسورة قد أفلح: أنه لما قال: وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ﴾ ذكر في هذه أحكام من لم يحفظ فرجه، من الزانية والزاني، وما اتصل بذلك من شأن القذف، وقصة الإفك، والأمر بغض البصر، وأمر فيها بالنكاح حفظا للفروج، وأمر من لم يقدر على النكاح بالاستعفاف وحفظ فرجه، ونهى عن إكراه الفتيات على الزنا. ولا ارتباط أحسن من هذا الارتباط، ولا تناسق أبدع من هذا النسق)[4].

القراءات وتوجيهها:

قال العلامة ابن الجزري: وَاخْتَلَفُوا فِي: (وَفَرَضْنَاهَا) فَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَابْنُ عَامِرٍ وَأَبُو عَمْرٍو بِتَشْدِيدِ الرَّاءِ وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِتَخْفِيفِهَا"[5]، وَاخْتَلَفُوا فِي (تَذَكَّرُونَ) إِذَا كَانَ بِالتَّاءِ

---

(١) سورة المؤمنون: ١٥.

(٢) سورة المؤمنون: ١١٨.

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ١٣/٢٠٠، ٢٠١.

(٤) تناسق الدرر في تناسب السور للسيوطي ١/٩٢.

(٥) النشر في القراءات العشر لابن الجزري ٢/٣٣٠.

خِطَابًا وَحَسُنَ مَعَهَا يَاءٌ أُخْرَى فَقَرَأَ حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَخَلَفٌ وَحَفْصٌ بِتَخْفِيفِ الذَّالِ حَيْثُ جَاءَ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِالتَّشْدِيدِ[١].

قال أبو منصور: مَنْ قَرَأَ (وَفَرَّضْنَاهَا) بالتشديد فالمعنى: أنزلنا منها فرضا بعد فرض، فلما كثرت شُدد الفعل. ومعنى فرَّضنا: بيَّنَّا وفصلنا ما فيها من أمر ونهي وتوقيف وحدٍّ. ومن خففَ فمعناه: ألزمناكُمْ العمل بما بُيِّن فيها من الواجبات والحقوق[٢].

وقال أبو منصور: من شدَّد الذال والكاف في (تَذَكَّرون) أو (يذَّكَّرُون)؛ فالأصل: تَتَذَكَّرُون، ويَتَذَكَّرون، فأدغمت التاء في الذال، وشُددت. ومَنْ قَرَأَ (تَذَكَّرون) بتخفيف الذال وتشديد الكاف؛ فالأصل أيضًا (تَتَذَكَّرون) فحُذفَت إحدى التاءين استخفافا[٣].

وقال العلامة ابن الجزري: وَاخْتَلَفُوا فِي: (رَأْفَةٌ) هُنَا وَفِي الْحَدِيدِ، **فَرَوَى قُنْبُلٌ بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ**، وَاخْتُلِفَ عَنْهُ فِي الْحَدِيدِ، فَرَوَى عَنْهُ ابْنُ مُجَاهِدٍ إِسْكَانَ الْهَمْزَةِ كَالْجَمَاعَةِ، وَرَوَى عَنْهُ ابْنُ شَنَبُوذَ بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ وَأَلِفٍ بَعْدَهَا مِثْلَ رَعَافَةٍ، وَهِيَ رِوَايَةُ ابْنِ جُرَيْجٍ وَمُجَاهِدٍ وَاخْتِيَارُ ابْنِ مِقْسَمٍ، وَاخْتُلِفَ عَنِ الْبَزِّيِّ هُنَا، فَرَوَى عَنْهُ أَبُو رَبِيعَةَ تَحْرِيكَ الْهَمْزِ كَقُنْبُلٍ، **وَرَوَى عَنْهُ ابْنُ الْحُبَابِ** إِسْكَانَهَا، وَبِذَلِكَ قَرَأَ الْبَاقُونَ، وَكُلُّهَا لُغَاتٌ فِي الْمَصَادِرِ[٤] إِلَّا أَنَّهُمُ اتَّفَقُوا عَلَى الْإِسْكَانِ فِي الْحَدِيدِ سِوَى مَا تَقَدَّمَ عَنْ ابْنِ شَنَبُوذَ، وَهُمْ فِي الْهَمْزِ عَلَى أُصُولِهِمُ الْمَذْكُورَةِ فِي بَابِ الْهَمْزِ الْمُفْرَدِ[٥].

قال أبو منصور: هما لغتان (الرَّأْفَةُ) و (الرَّآفَةُ) بوزن الرَّعْفَة والرَّعَافَة. ومثله: الكأبةُ والكآبة، والسأمة والسآمة؛ وكأنَّ الرأفة مرةٌ واحدة، والرآفة مصدر كقولك ضَؤُلَ ضآلة[٦].

التفسير:

قال الإمام القرطبي: (مَقْصُودُ هَذِهِ السُّورَةِ ذِكْرُ أَحْكَامِ الْعَفَافِ وَالسِّتْرِ)[٧].

---

(١) المرجع السابق ٢٦٦/٢.

(٢) معاني القراءات للأزهري ٢٠١/٢.

(٣) المرجع السابق ٣٩٤/١.

(٤) هذا توجيه القراءات.

(٥) النشر في القراءات العشر لابن الجزري ٣٣٠/٢.

(٦) معاني القراءات للأزهري ٢٠١/٢.

(٧) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي ١٥٨/١٢.

قال الإمام الطبري في تعليل التقدير بـ (هَذه سُورةٌ أَنْزَلْنَاها): (وإنما قلنا معنى ذلك كذلك؛ لأن العرب لا تكاد تبدأ بالنكرات قبل أخبارها، إذا لم تكن جوابا...) [١].

وخصها -تعالى- بهذا الافتتاح لأمرين:

أحدهما: أن المقصود الزجر والوعيد فافتتحت بالرهبة كسورة التوبة.

الثاني: أن فيها تشريفاً للنبي ﷺ بطهارة نسائه؛ فافتتحت بذكر [السورة] [٢] و(السورة اسم للمنزلة الشريفة، ولذلك سُميت السورة من القرآن سورة. قال الشاعر:

ألم تَرَ أنَّ اللَّهَ أعْطَاكَ سُورةً ترى كُلَّ مَلْكٍ دُونَها يَتَذَبْذَبُ [٣].

قال الراغب: (وسُورُ المدينة: حائطها المشتمل عليها، وسُورَةُ القرآن تشبيهًا بها لكونه محاطا بها إحاطة السّور بالمدينة، أو لكونها منزلة كمنازل القمر، ومن قال: سؤرة فمن أسأرت، أي: أبقيت منها بقيّة، كأنها قطعة مفردة من جملة القرآن وقوله: ﴿ سُورَةٌ أَنْزَلْناها ﴾، أي: جملة من الأحكام والحكم) [٤].

قوله تعالى: ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَهَا ﴾: فيه تنبيه على الاعتناء بها ولا ينفي ما عداها[٥].

وقوله تعالى: ﴿ وَفَرَضْنَهَا ﴾: فعن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ وَفَرَضْنَهَا ﴾ يقول: بيّناها، وقال مجاهد وقتادة: (أي بيّنا الحلال والحرام، والأمرَ والنهي والحدود) [٦].

قال الإمام البخاري: ومن قرأ ﴿وَفَرَضْنَهَا ﴾ يقول: فرضنا عليكم وعلى مَن بَعدكم) [٧].

قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾، أي: وأنزلنا في هذه السورة العظيمة آيات واضحات، وأحكامًا بيناتٍ لا إشكالَ فيها؛ لتعملوا بها، وحججا دامغات لمن عقلها وتدبرها، فإنها نزلت من الحق المبين جل وعلا لهداية الخلق إلى سبيل الحق.

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري ١٣٦/١٧.

(٢) ما بين المعقوفين من قولي ليتضح المعنى.

(٣) النكت والعيون للماوردي ٧٠/٤.

(٤) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص٤٣٤.

(٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٠١/٤.

(٦)جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري ١٣٧/١٧، ١٣٨.

(٧) صحيح البخاري ٩٩/٦.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾[1].

قال العلامة الشنقيطي: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أَيْ: تَتَّعِظُونَ بِمَا فِيهَا مِنَ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي وَالْمَوَاعِظِ، وَيَدُلُّ لِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾، فَقَدْ صَرَّحَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ بِأَنَّ مِنْ حِكَمِ إِنْزَالِهَا، أَنْ يَتَذَكَّرَ النَّاسُ، وَيَتَّعِظُوا بِمَا فِيهَا، وَيَدُلُّ لِذَلِكَ عُمُومُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾[2].

وقد أعادَ – تبارك وتعالى – ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ مرة أخرى في هذه السورة عند قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾[3]، عنايةً بها وبأحكامها؛ لأن التذكرَ طريق الهداية، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا ﴾ يدل على ثبُوتُ صفة العلو لله تعالى، وأن القرآنَ كلام الله تكلم به جل وعلا، ونزل به جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ.

ومن أسماء الله الحُسنى العليُّ والأعلى، وقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ ﴾[6]، **أي** مَن في العُلو، أو أأمنتم من على السماء جل ذِكْرُهُ، وفي الصحيح عن معاوية بن الحكم السلمي، قال: بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك الله فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: واثكل أمياه، ما شأنكم؟ تنظرون إلي، فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يصمتونني لكني سكت، فلما صلى رسول الله ﷺ فبأبي هو وأمي،

---

(١) سورة النور: ٣٥.

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد أمين الشنقيطي٥/٥٣٣.

(٣) سورة النور: ٢٧.

(٤) سورة النحل: ٤٩، ٥٠.

(٥) سورة فاطر: ١٠.

(٦) سورة الملك: ١٦.

ما رأيت معلما قبله ولا بعده أحسن تعليما منه، فوالله، ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني، قال: "إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن" أو كما قال رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله، إني حديث عهد بجاهلية، وقد جاء الله بالإسلام، وإن منا رجالا يأتون الكهان، قال: "فلا تأتهم" قال: ومنا رجال يتطيرون، قال: " ذاك شيء يجدونه في صدورهم، فلا يصدنهم – قال ابن الصباح: فلا يصدنكم – قال قلت: ومنا رجال يخطون، قال: " كان نبي من الأنبياء يخط، فمن وافق خطه فذاك " قال: وكانت لي جارية ترعى غنما لي قبل أحد والجوانية، فاطلعت ذات يوم فإذا الذيب قد ذهب بشاة من غنمها، وأنا رجل من بني آدم، آسف كما يأسفون، لكني صككتها صكة، فأتيت رسول الله ﷺ فعظم ذلك علي، قلت: يا رسول الله أفلا أعتقها؟ قال:" ائتني بها " فأتيته بها، فقال لها: " أين الله؟ " قالت: في السماء، قال: " من أنا؟ " قالت: أنت رسول الله، قال: " أعتقها، فإنها مؤمنة "[1].

قوله تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾.

هذه الآية الكريمة تُبين حكم وعقوبة جنس الزانية والزاني في شرع الله تعالى التي حدّها لعباده.

والزنا في اللغة: مِن: زَنَنْتُهُ، أي: اتهمته بسوء، ومنه قول حسان بن ثابت ﷺ في مدح أم المؤمنين عائشة –رضي الله عنها–:

حَصانٌ رزانٌ ما تُزن بريبة وتُصبح غرثى من لحوم الغوافل[2].

واصطلاحا: (وطء المرأة في غير عقد أو نكاح شرعيّ) [3].

وقال الإمام ابن قدامة في تعريفه: هو الوطء في الفرج لا يملكه، ولا يجب الحد بغير ذلك"[4].

---

(١) صحيح مسلم – كتاب المساجد ومواضع الصلاة– باب تحريم الكلام في الصلاة – حديث رقم ٥٣٧.

(٢) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للفيومي ٣٣/٢ باختصار. والغرثان: الجائعُ. يُنظر: مختار الصحاح ص٤٨٨.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ص٣٨٤. وعمدة الألفاظ في تفسير أشرف الألفاظ للسمين الحلبي ١١٣١/٢.

(٤) الكافي في فقه الإمام أحمد للإمام ابن قدامه ٨٤/٤، ٨٥.

والزّنا من كبائر الذنوب، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾[1]، وهو يفسدُ القلب، ويُضعف الإيمان فعن أبي هريرة ﷺ إن النبي ﷺ قال: "لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن" قال ابن شهاب: وأخبرني عبد الملك بن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام: أن أبا بكر، كان يُحدثه عن أبي هريرة ﷺ ثم يقول: كان أبو بكر يُلحقُ معهن: "ولا ينتهب نُهبة ذات شرف، يرفع الناس إليه أبصارهم فيها، حين ينتهبها وهو مؤمن"[2].

وعن أبي هريرة ﷺ يقول: قال رسول الله ﷺ: "إذا زنى الرجل خرج منه الإيمان كان عليه كالظلة، فإذا انقطع رجع إليه الإيمان"[3].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: فَقَوْلُ السَّائِلِ: هَلْ حَمَلَ الْحَدِيثَ عَلَى ظَاهِرِهِ أَحَدٌ مِنْ الْأَئِمَّةِ؟ لَفْظٌ مُشْتَرَكٌ ؛ فَإِنْ عَنَى بِذَلِكَ أَنَّ ظَاهِرَهُ أَنَّ الزَّانِيَ يَصِيرُ كَافِرًا وَأَنَّهُ يُسْلَبُ الْإِيمَانُ بِالْكُلِّيَّةِ فَلَمْ يَحْمِلْ الْحَدِيثَ عَلَى هَذَا أَحَدٌ مِنْ الْأَئِمَّةِ وَلَا هُوَ أَيْضًا ظَاهِرُ الْحَدِيثِ لِأَنَّ قَوْلَهُ (خَرَجَ مِنْهُ الْإِيمَانُ فَكَانَ فَوْقَ رَأْسِهِ كَالظُّلَّةِ) دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ لَا يُفَارِقُهُ بِالْكُلِّيَّةِ فَإِنَّ الظُّلَّةَ تُظَلِّلُ صَاحِبَهَا وَهِيَ مُتَعَلِّقَةٌ وَمُرْتَبِطَةٌ بِهِ نَوْعَ ارْتِبَاطٍ. وَأَمَّا إنْ عَنَى بِظَاهِرِهِ مَا هُوَ الْمَفْهُومُ مِنْهُ كَمَا سَنُفَسِّرُهُ إنْ شَاءَ اللَّهُ فَنَعَمْ؛ فَإِنَّ عَامَّةَ عُلَمَاءِ السَّلَفِ يُقَرُّونَ هَذِهِ الْأَحَادِيثَ وَيُمِرُّونَهَا كَمَا جَاءَتْ وَيَكْرَهُونَ أَنْ تُتَأَوَّلَ تَأْوِيلَاتٍ تُخْرِجُهَا عَنْ مَقْصُودِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ نُقِلَ كَرَاهَةُ تَأْوِيلِ أَحَادِيثِ الْوَعِيدِ: عَنْ سُفْيَانَ وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ ﷺ وَجَمَاعَةٍ كَثِيرَةٍ مِنْ الْعُلَمَاءِ وَنَصَّ أَحْمَدُ عَلَى أَنَّ مِثْلَ هَذَا الْحَدِيثِ لَا يُتَأَوَّلُ تَأْوِيلًا يُخْرِجُهُ عَنْ ظَاهِرِهِ الْمَقْصُودِ بِهِ[4].

والزنا أنواع ودركاتٌ: بعضها أشرُّ من بعض:

فأعظمه الزنا بالمحارم، وعقوبته القتلُ، وتخميسُ المال.

---

(١) سورة الإسراء: ٣٢.

(٢) صحيح البخاري – كتاب الأشربة– باب قول الله تعالى: إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس، حديث رقم ٥٥٧٨.

(٣) سنن أبي داود – كتاب السنة– باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، حديث رقم ٤٦٩٠، وصححه العلامة الألباني في صحيح سنن أبي داود، حديث رقم ٤٦٩٠.

(٤) مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية ٦٧٤/٧.

فعن يزيد بن البراء عن أبيه، قال: أَصَبْتُ عَمِّي ومعه راية، فقلت: أين تريد؟ فقال: "بعثني رسول الله ﷺ إلى رجل نكح امرأة أبيه، فأمرني أن أضرب عنقه وآخذ ماله"(١).

وكذلك الزنا بحليلة الجار فعن المقداد بن الأسود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "لأن يزني الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره، ولأن يسرق من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من بيت جاره"(٢).

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: سألت النبي ﷺ: "أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: "أن تجعل لله ندا وهو خلقك". قلت: إن ذلك لعظيم، قلت: ثم أي؟ قال: "وأن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك". قلت: ثم أي؟ قال: "أن تزاني حليلة جارك"(٣).

وكذلك زنا الشيخ، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم – قال أبو معاوية: ولا ينظر إليهم– ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر"(٤).

فالزنا عظيمٌ وقبيحٌ، فاقترافه من حُرّ أو عالم أو شيخٍ، أو ثيّبٍ أقبح وأشنع من عبد وجاهل، وبِكْرٍ وشاب سفيه.

وفي آخر الزمان يفشو الجهلُ، ويكثرُ الزنا، كما جاء في الصحيح.

فعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "إن من أشراط الساعة: أن يُرفع العلم، ويثبت الجهل، ويشرب الخمر، ويظهر الزنا"(٥).

قال الطاهر بن عاشور – عند هذه الآية– **(ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي...)**: ابتداءُ كلامٍ، وهو كالعنوان والترجمة في التبويب، فلذلك أتي بعده بالفاء المؤذنة بأن ما بعدها في قوة الجواب وأن ما قبلها في قوة الشرط. فالتقدير: الزانية والزاني مما أُنزلت له هذه السورة وفُرضت.

---

(١) سنن النسائي – كتاب النكاح – نكاح ما نكح الآباء، حديث رقم ٣٣٣٢. وصححه العلامة الألباني في صحيح سنن النسائي، حديث رقم ٣٣٣٢.

(٢) المعجم الأوسط للطبراني، حديث رقم ٦٣٣٣. وصححه العلامة الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، حديث رقم ٢٤٠٤.

(٣) صحيح البخاري – كتاب تفسير القرآن– سورة البقرة – باب قوله تعالى: فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون، حديث رقم ٤٤٧٧.

(٤) صحيح مسلم – كتاب الإيمان– باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار، حديث رقم ١٧٢.

(٥) صحيح البخاري – كتاب العلم– باب رفع العلم وظهور الجهل، حديث رقم ٨٠.

ولما كان هذا يستدعي استشراف السامع كان الكلام في قوة: إن أردتم حكمهما فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة. وهكذا شأن هذه الفاء كلما جاءت بعد ما هو في صورة المبتدأ فإنما يكون ذلك المبتدأ في معنى ما للسامع رغبة في استعلام حاله[١].

قوله تعالى: ﴿ فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ ﴾.

هذا حكم الله جل وعلا والحدُّ الذي أنزله في شرعه القويم في كل زانٍ حُرٍّ بِكْرٍ، فيجلدُ مائة جلدة بالسوط الوسط، بكتاب الله تعالى، ويُزاد على ذلك أن يُغرّب سنة عن بلده عند جمهور الأئمة والفقهاء خلافا لأبي حنيفة رحمه الله، والحجةُ لهذا ما ثبَت في الصحيحين: فعن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني قالا: جاء أعرابي، فقال: يا رسول الله اقض بيننا بكتاب الله، فقام خصمُه فقال: صدق، اقض بيننا بكتاب الله، فقال الأعرابي: إن ابني كان عسيفا[٢] على هذا، فزنى بامرأته، فقالوا لي: على ابنك الرجم، ففديت ابني منه بمائة من الغنم ووليدة، ثم سألت أهل العلم، فقالوا: إنما على ابنك جلد مائة، وتغريب عام، فقال النبي ﷺ: "لأقضين بينكما بكتاب الله، أما الوليدة والغنم فرد عليك، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام، وأما أنت يا أنيس لرجل فاغد على امرأة هذا، فارجمها"، فغدا عليها أنيس فرجمها"[٣].

وعند مسلم: "وَاغْدُ يَا أُنَيْسُ إِلَى امْرَأَةِ هَذَا، فَإِنِ اعْتَرَفَتْ فَارْجُمْهَا»، قَالَ: فَغَدَا عَلَيْهَا، فَاعْتَرَفَتْ، فَأَمَرَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَرُجِمَتْ"[٤].

فأما إن كان الزاني مُحصناً؛ فإنه يُجلدُ ويُرجَمُ، وهذه رواية عن الإمام أحمد.

فعن عبادة بن الصامت ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلا، البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة، والثيب بالثيب جلد مائة، والرجم"[٥].

---

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١١٧/١٨.

(٢) الْعَسِيفُ: هُوَ الْأَجِيرُ؛ لِأَنَّهُ يَعْسِفُ الطُّرُقَاتِ مُتَرَدِّدًا فِي الْأَشْغَالِ. وَالْجَمْعُ: عُسَفَاءُ مِثْلُ أَجِيرٍ وَأُجَرَاءَ. المصباح المنير للفيومي ٣٣٨/٢.

(٣) صحيح البخاري – كتاب الصلح باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، حديث رقم ٢٦٩٥.

(٤) صحيح مسلم – كتاب الحدود – باب من اعترف على نفسه بالزنا، حديث رقم ١٦٩٧.

(٥) صحيح مسلم – كتاب الحدود – باب حد الزني، حديث رقم ١٦٩٠.

قال الإمام ابن قدامة: (وَالرِّوَايَةُ الثَّانِيَةُ – عن أحمد – يُرْجَمُ وَلَا يُجْلَدُ. رُوِيَ عَنْ عُمَرَ وَعُثْمَانَ؛ أَنَّهُمَا رَجَمَا وَلَمْ يَجْلِدَا.

وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: إذَا اجْتَمَعَ حَدَّانِ لِلَّهِ تَعَالَى، فِيهِمَا الْقَتْلُ أَحَاطَ الْقَتْلُ بِذَلِكَ. وَبِهَذَا قَالَ النَّخَعِيُّ، وَالزُّهْرِيُّ، وَالْأَوْزَاعِيُّ، وَمَالِكٌ، وَالشَّافِعِيُّ، وَأَبُو ثَوْرٍ، وَأَصْحَابُ الرَّأْيِ. وَاخْتَارَ هَذَا أَبُو إِسْحَاقَ الْجُوزَجَانِيُّ، وَأَبُو بَكْرٍ الْأَثْرَمُ. وَنَصَرَاهُ فِي "سُنَنِهِمَا "؛ لِأَنَّ جَابِرًا رَوَى، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَجَمَ مَاعِزًا وَلَمْ يَجْلِدْهُ، وَرَجَمَ الْغَامِدِيَّةَ وَلَمْ يَجْلِدْهَا. وَقَالَ: وَاغْدُ يَا أُنَيْسُ إلَى امْرَأَةِ هَذَا، فَإِنْ اعْتَرَفَتْ فَارْجُمْهَا. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. وَلَمْ يَأْمُرْهُ بِجَلْدِهَا، وَكَانَ هَذَا آخِرَ الْأَمْرَيْنِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَوَجَبَ تَقْدِيمُهُ) [1]. والعلم عند الله.

قال الإمام ابن قدامة: (وَلَنَا، أَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ الرَّجْمُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِقَوْلِهِ وَفِعْلِهِ، فِي أَخْبَارٍ تُشْبِهُ الْمُتَوَاتِرَ، وَأَجْمَعَ عَلَيْهِ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى مَا سَنَذْكُرُهُ فِي أَثْنَاءِ الْبَابِ فِي مَوَاضِعِهِ، إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَقَدْ أَنْزَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ، **وَإِنَّمَا نُسِخَ رَسْمُهُ دُونَ حُكْمِهِ**... ثم قال: وَأَمَّا آيَةُ الْجَلْدِ، فَنَقُولُ بِهَا، فَإِنَّ الزَّانِيَ يَجِبُ جَلْدُهُ، فَإِنْ كَانَ ثَيِّبًا رُجِمَ مَعَ الْجَلْدِ، وَالْآيَةُ لَمْ تَتَعَرَّضْ لِنَفْيِهِ. وَإِلَى هَذَا أَشَارَ عَلِيٌّ ﷺ حِينَ جَلَدَ شُرَاحَةَ، ثُمَّ رَجَمَهَا، وَقَالَ: جَلَدْتُهَا بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، ثُمَّ رَجَمْتُهَا بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ) [2].

والمحصنُ هو الذي قد وَطِئ في نكاح صحيح، وهو حرٌ بالغٌ عاقلٌ[3]؛ فإذا أُحصنَ المسلمُ وثبت عليه الزنا، فإنه يحلُّ دمُهُ بالرجم.

فعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "لا يحل دم امرئ مسلم، يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمارق من الدين التارك للجماعة"[4].

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عباس ﷺ يقول: قال عمر بن الخطاب وهو جالس على منبر رسول الله ﷺ: "إن الله قد بعث محمدا ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل عليه آية الرجم، قرأناها ووعيناها وعقلناها، فرجم رسول الله ﷺ، ورجمنا

---

(١) المغني لابن قدامة ٣٧/٩.

(٢) المرجع السابق٣٥/٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٠٢/٤.

(٤) صحيح مسلم – كتاب القسامة والمحاربين... – باب ما يباح به دم المسلم، حديث رقم ١٦٧٦.

بعده، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: ما نجد الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، وإن الرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء إذا قامت البينة، أو كان الحبَلُ، أو الاعتراف"(١).

ولا يثبت الحدُّ إلا بالإقرار والاعتراف الصريح، أو أربعة شهود يُصرحون أنهم رأوا إيلاج الفرْج في الفرْج

عن ابن عباس قال: لما أتى ماعز بن مالك النبي ﷺ قال له: "لعلك قبلت، أو غمزت، أو نظرت" قال: لا يا رسول الله، قال: أنكتها لا يُكَنِّي، قال: فعند ذلك أمر برجمه(٢).

وقد رجم رسول الله ﷺ ماعزا والغامدية .

فعن أبي سعيد ﷺ أن رجلا من أسلم يقال له ماعز بن مالك أتى رسول الله ﷺ، فقال: إني أصبت فاحشة، فأقمه علي، فرده النبي ﷺ مرارا، قال: ثم سأل قومه، فقالوا: ما نعلم به بأسا إلا أنه أصاب شيئا يرى أنه لا يخرجه منه إلا أن يقام فيه الحد، قال: فرجع إلى النبي ﷺ، فأمرنا أن نرجمه، قال: فانطلقنا به إلى بقيع الغرقد، قال: فما أوثقناه، ولا حفرنا له، قال: فرميناه بالعظم، والمدر، والخزف، قال: فاشتد، واشتددنا خلفه حتى أتى عرض الحرة، فانتصب لنا فرميناه بجلاميد الحرة – يعني الحجارة – حتى سكت، قال: ثم قام رسول الله ﷺ خطيبا من العشي، فقال: "أو كلما انطلقنا غزاة في سبيل الله تخلف رجل في عيالنا، له نبيب كنبيب التيس، علي أن لا أوتى برجل فعل ذلك إلا نكلت به"، قال: فما استغفر له ولا سبه"(٣).

وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه أن ماعز بن مالك الأسلمي أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني قد ظلمت نفسي، وزنيت، وإني أريد أن تطهرني، فرده، فلما كان من الغد أتاه، فقال: يا رسول الله، إني قد زنيت، فرده الثانية، فأرسل رسول الله ﷺ إلى قومه، فقال: " أتعلمون بعقله بأسا، تنكرون منه شيئا؟ "فقالوا: ما نعلمه إلا وفي العقل

---

(١) صحيح مسلم – كتاب الحدود – باب رجم الثيب في الزنا، حديث رقم ١٦٩١.

(٢) صحيح البخاري – كتاب الحدود باب هل يقول الإمام للمقر: لعلك لمست أو غمزت، حديث رقم ٦٨٢٤. وزاد في سنن أبي داود: قال: أنكتها؟ قال: نعم، قال: فعند ذلك أمر برجمه. ينظر: سنن أبي داود – كتاب الحدود– باب رجم ماعز بن مالك، حديث رقم ٤٤٢٧. وصححه العلامة الألباني في صحيح سنن أبي داود، حديث رقم ٤٤٢٧.

(٣) صحيح مسلم – كتاب الحدود– باب من اعترف على نفسه بالزنى، حديث رقم ١٦٩٤.

من صالحينا فيما نرى، فأتاه الثالثة، فأرسل إليهم أيضا فسأل عنه، فأخبروه أنه لا بأس به، ولا بعقله، فلما كان الرابعة حفر له حفرة، ثم أمر به فرجم، قال، فجاءت الغامدية، فقالت: يا رسول الله، إني قد زنيت فطهرني، وإنه ردها، فلما كان الغد، قالت: يا رسول الله، لم تردني؟ لعلك أن تردني كما رددت ماعزا، فوالله إني لحبلى، قال: " إما لا فاذهبي حتى تلدي "، فلما ولدت أتته بالصبي في خرقة، قالت: هذا قد ولدته، قال: " اذهبي فأرضعيه حتى تفطميه "، فلما فطمته أتته بالصبي في يده كسرة خبز، فقالت: هذا يا نبي الله قد فطمته، وقد أكل الطعام، فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين، ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها، وأمر الناس فرجموها، فيقبل خالد بن الوليد بحجر، فرمى رأسها فتنضح الدم على وجه خالد فسبها، فسمع نبي الله ﷺ سبه إياها، فقال:" مهلا يا خالد، فو الذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له"، ثم أمر بها فصلى عليها، ودفنت"[1].

رجم الزاني المحصن موافق لما في التوراة:

ولما تحاكم اليهود إلى النبي ﷺ في شأن الزانيين المحصنين حكم بحكم الله تعالى فأمر برجمهما.

فعن عبد الله بن عمر ، أن اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلا منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: "ما تجدون في التوراة في شأن الرجم". فقالوا: نفضحهم ويجلدون، فقال عبد الله بن سلام: كذبتم إن فيها الرجم فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده فإذا فيها آية الرجم، فقالوا: صدق يا محمد، فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرُجما، قال عبد الله: فرأيت الرجل يجنأ على المرأة يقيها الحجارة"[2].

مما مضى يتضحُ أن رسول الله ﷺ رجمَ ماعزا والغامدية والمرأة التي زنى بها العسيفُ واليهوديين. **فهذه خمسُ حالاتٍ في أربع وقائع، رجمَ فيهنَّ رسول الله ﷺ الزاني المُحصن فيما نعلم، والعلم عند الله تعالى.**

---

(١) صحيح مسلم – كتاب الحدود– باب من اعترف على نفسه بالزنى – حديث رقم ١٦٩٥.

(٢) صحيح البخاري – كتاب المناقب – باب قول الله تعالى: يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا – حديث رقم ٣٤٣٦.

زنى العبيد والإماء:

وإن زنى المملوك فإنه يُجلد خمسين جلدة؛ لقوله تعالى: ﴿ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ .

قال الإمام ابن قدامة: (وَإِذَا زَنَى الْعَبْدُ وَالْأَمَةُ، جُلِدَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا خَمْسِينَ جَلْدَةً، وَلَمْ يُغَرَّبَا) وَجُمْلَتُهُ أَنَّ حَدَّ الْعَبْدِ وَالْأَمَةِ خَمْسُونَ جَلْدَةً بِكْرَيْنِ كَانَا أَوْ ثَيِّبَيْنِ. فِي قَوْلِ أَكْثَرِ الْفُقَهَاءِ"[1].

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾.

أي: مَن زنا من الرجال أو النساء فأقيموا عليه الحدّ، ولا تأخذكم بالزاني والزانية رِقّةٌ أو ضعف في إقامة حدود الله، كما ينبغي من شدة الضرب غير المبرّح.

قلتُ: والحدُّ فيه تأديب وتعذيب، والحدود زواجر وجوابر، والله أعلم.

وتحرُمُ الشفاعة في حدٍّ من حدود الله تعالى، فعن عائشة أن قريشا أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: ومن يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد، حب رسول الله ﷺ فكلمه أسامة، فقال رسول الله ﷺ: "أتشفع في حد من حدود الله، ثم قام فاختطب، ثم قال: إنما أهلك الذين قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها"[2].

قوله تعالى: ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

وهذا إلزام من الله جل وعلا؛ أن يشهد هذا الحدِّ طائفةٌ من المؤمنين علانيةً، وهذا فيه زيادة تنكيل بمن اقترف الزنا، وفيه ردعٌ له وزجر لغيره؛ ليسلم المجتمع المسلمُ من هذه القاذورات.

والطائفة: الرجلُ فما فوقه، كما روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس [3].

حكم الزواج بالزانية والزاني:

قوله تعالى: ﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾.

---

(١) المغني لابن قدامة ٤٩/٩.

(٢) البخاري – كتاب أحاديث الأنبياء– باب حديث الغار – حديث: حديث رقم ٣٤٧٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٠٤/٤.

سبب نزول الآية:

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، قال: كان رجل يقال له: مرثد بن أبي مرثد، وكان رجلا يحمل الأسرى من مكة حتى يأتي بهم المدينة، قال: وكانت امرأة بغي بمكة، يقال لها "عناق" وكانت صديقة له، وإنه كان وعد رجلا من أسارى مكة يحمله، قال: فجئت حتى انتهيت إلى ظل حائط من حوائط مكة في ليلة مُقمرة، قال: فجاءت "عناق" فأبصرت سواد ظلي بجنب الحائط، فلما انتهت إليّ عرفت، فقالت: مرثد؟ فقلت: مرثد. فقالت: مرحبا وأهلا هلم فبت عندنا الليلة. قال: قلت: يا "عناق" حرم الله الزنا، قالت: يا أهل الخيام، هذا الرجل يحمل أسراءكم، قال: فتبعني ثمانية، وسلكت الخندمة، فانتهيت إلى كهف أو غار فدخلت، فجاؤوا حتى قاموا على رأسي فبالوا، فظل بولهم على رأسي، وعماهم الله عني، قال: ثم رجعوا ورجعت إلى صاحبي فحملته، وكان رجلا ثقيلا، حتى انتهيت إلى الإذخر، ففككت عنه أ كبله فجعلت أحمله ويعييني، حتى قدمت المدينة، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، أنكح عناقا؟ فأمسك رسول الله ﷺ فلم يرد علي شيئا، حتى نزلت ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ فقال رسول الله ﷺ: يا مرثد، ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ فلا تنكحها"(١).

وعن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله (الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة) قال: الزاني من أهل القبلة لا يزني إلا بزانية مثله أو مشركة. قال: والزانية من أهل القبلة لا تزني إلا بزانٍ مثلها من أهل القبلة أو مشرك من غير أهل القبلة. ثم قال (وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى المُؤْمِنِين) (٢).

وقد اختلف أهل التفسير في معنى النكاح في قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ﴾، فمنهم من حمله على العقد والزواج، ومنهم من حمله على الوطء.

ولأهل العلم في معنى النكاح في هذه الآية قولان: فمنهم من حمله على العقد والزواج، ومنهم من حمله على الوطء.

---

(١) سنن الترمذي (الجامع الصحيح) – الذبائح– أبواب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، حديث رقم ٣١٧٧، وصححه العلامة الألباني في غاية المرام، حديث رقم ٢٢٣.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري ١٥٩/١٧.

قال الإمام ابن كثير: "هذا خبر من الله تعالى بأن الزاني لا يطأ إلا زانية أو مشركة، أي: لا يُطاوعه على مراده من الزنا إلا زانية عاصية، أو مشركة، لا ترى حرمة ذلك، وكذلك، والزانية لا ينكحها إلا زانٍ أي عاصٍ بزناه، أو مشرك لا يعتقد تحريمه... **قال سفيان الثوري:** عن حبيب بن أبي عمرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : ﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ﴾، قال: ليس هذا بالنكاح؛ إنما هو الجماع، لا يزني بها إلا زانٍ أو مشرك، وهذا إسناد صحيح عنه"(١).

وقد قال الله تعالى في وجوب إنكاح العفيف: ﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ﴾(٢)، وقال تعالى في وجوب نكاح العفيفة من المؤمنات والكتابيات: ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ ۖ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾ ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ ﴾(٤).

قوله تعالى: ﴿ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي: حُرِّمت فاحشة الزنا على عباد الله المؤمنين الذين يُصدقون به وبرسوله ﷺ وباليوم الآخر، وكذا يحرُم إنكاحُ الزاني ونكاح الزانية في دين الله تعالى إلا أن يتوبوا، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ ﴾(٥).

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَجُلًا، مِنَ الْمُسْلِمِينَ اسْتَأْذَنَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي امْرَأَةٍ يُقَالُ لَهَا: أُمُّ مَهْزُولٍ، وَكَانَتْ تُسَافِحُ، وَتَشْتَرِطُ لَهُ أَنْ تُنْفِقَ عَلَيْهِ، قَالَ: فَاسْتَأْذَنَ رَسُولَ اللهِ ﷺ

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥/٥٠٥.

(٢) سورة النساء: ٢٤.

(٣) سورة المائدة: ٥.

(٤) سورة النساء: ٢٥.

(٥) سورة الفرقان ٦٨: ٧١.

أَوْ ذَكَرَ لَهُ أَمْرَهَا؟ قَالَ: فَقَرَأَ عَلَيْهِ نَبِيُّ اللهِ ﷺ: ﴿الزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾[1].

عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال رسول الله ﷺ: "ثلاث لا يدخلون الجنة، ولا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاقُّ بوالديه، والمرأة المترجلة – المتشبهة بالرجال –، والدَّيُّوثُ، وثلاثةٌ لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق بوالديه، والمدمن الخمر، والمنان بما أعطى"[2]. و"الدَّيُّوث هو المُحْتَمِلُ لِما ينالُه من سوء في حرمته"[3]، وَالَّذِي لَا يغار على أَهله دَيُّوث"[4].

ويستفاد من الآيات:

١– ثبُوتُ صفة العلو لله تعالى وأن القرآنَ كلام الله تكلم به جل وعلا ونزل به جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ.

٢–القرآن نزل هداية وموعظة للناس، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ .

وقال تعالى: ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ وقال تعالى:﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وقال تعالى:﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ وقال تعالى:﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾.

٣–بيانُ حدّ الزاني والزانية البكرين الحُرّين، وهو جلدُ مائة، وفي السنة تغريبُ عام، وقد ذُكِرَ التفصيلُ في ذلك في تفسير الآيات.

٤–وجوبُ إشهارِ الحدِّ أمام طائفة من المؤمنين.

٥– حُرمة تزويجِ العفيفة بالزاني، وكذلك العفيف بالزانية إلا من تابَ وأنابَ.

---

(١) مسند الإمام أحمد – ومن مسند بني هاشم – مسند عبد الله بن عمرو بن العاص ، حديث رقم ٦٤٨٠، وقال العلامة شعيب الأرناؤوط: حسن.

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل – ومن مسند بني هاشم – مسند عبد الله بن عمر ، حديث رقم ٦١٨٠. وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع، حديث رقم ٣٠٧١.

(٣) كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي ٥/٨.

(٤) تهذيب اللغة لأبي منصور الهروي ١٠٧/١٤.

الدرس الثاني

(الحكم في قذف المحصنات والزوجات)

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾.

القراءات وتوجيهها:

قال العلامة ابن الجزري: وَاخْتَلَفُوا فِي (الْمُحْصَنَاتِ) وَ(مُحْصَنَاتٍ) فَقَرَأَ الْكِسَائِيُّ بِكَسْرِ الصَّادِ حَيْثُ وَقَعَ مُعَرَّفًا، وَمُنَكَّرًا إِلَّا الْحَرْفَ الْأَوَّلَ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ، وَهُوَ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ؛ فَإِنَّهُ قَرَأَهُ بِفَتْحِ الصَّادِ كَالْجَمَاعَةِ؛ لِأَنَّ مَعْنَاهُ ذَوَاتُ الْأَزْوَاجِ، وَكَذَلِكَ قَرَأَ الْبَاقُونَ فِي الْجَمِيعِ(١).

فالحجة لمن فتح: أنه جعلهنَّ مفعولاً بهن؛ لأن أزواجهنَّ أحصنوهن. والحجة لمن كسر: أنه جعل الفعل لهنَّ، أي أحصنّ أنفسهن فهنّ محصناتٌ لها أي: عفيفات، أو تكون أحصنت نفسها بالإسلام من الفجور فصارت محصنة. وكلّ ما في كلام العرب من (أفعل) فاسم الفاعل فيه (مَفْعِل) إلا ثلاثة أحرف، فإنها جاءت بفتح العين: أحصن فهو (مُحْصَن)، وأسهب في القول فهو (مُسْهَب)، وألفح إذا أفلس فهو (ملفَح) (٢).

وقال العلامة ابن الجزري: وَاخْتَلَفُوا فِي: (أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ) الْأَوَّلُ؛ فَقَرَأَ حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَخَلَفٌ وَحَفْصٌ بِرَفْعِ الْعَيْنِ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِالنَّصْبِ".

وَاخْتَلَفُوا فِي: (أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ) وَ(أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ)؛ فَقَرَأَ نَافِعٌ وَيَعْقُوبُ بِإِسْكَانِ النُّونِ مُخَفَّفَةً فِيهِمَا وَرَفْعِ (لَعْنَةُ) وَاخْتَصَّ نَافِعٌ بِكَسْرِ الضَّادِ وَفَتْحِ الْبَاءِ مِنْ غَضَبَ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِتَشْدِيدِ النُّونِ فِيهِمَا، وَنَصْبِ لَعْنَةَ، وَغَضَبَ.

وَاخْتَلَفُوا فِي: (وَالْخَامِسَةَ) الْأَخِيرَةَ؛ فَرَوَاهُ حَفْصٌ بِالنَّصْبِ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِالرَّفْعِ"(٣).

---

(١) النشر في القراءات العشر لابن الجزري ٢/٢٤٩.

(٢) الحجة في القراءات السبع لابن خالويه ١/١٢٢.

(٣) النشر في القراءات العشر لابن الجزري ٢/٣٣٠.

فالحجة لمن رفع: (أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ) أنه جعله خبرا لقولهم: فشهادةُ أحدهم. والحجة لمن نصب: أنه أضمر فعلا له معناه فشهادة أحدهم أن يشهد أربعَ شهادات[1].

قال أبو منصور في توجيه القراءة في (أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ) وَ(أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ) (وَالْخَامِسَةَ): العربُ إذا شددت (أنَّ) نصبتْ الاسمَ، وإذا خففتْ ووليَهَا فهو اسمٌ مرفوعٌ. وَمَنْ قَرَأَ (أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ) بفتح الغين والضاد فهو مصدرٌ. وَمَنْ قَرَأَ (أَنْ غَضِبَ اللهُ) فَغَضِبَ فعل ماضٍ... **وقال أبو منصور:** من نَصبَ (الخامسةَ) فالمعنى: وليشهد الخامسةَ. وَمَنْ قَرَأَ (والخامسةُ) فهي معطوفة على قوله: (فشَهادَةُ أحدِهم أربعُ)، بالرفع. وقال الفراء: الخامسة في الآيتين مرفوعتان بما بعدهما من (أنَّ) و (أنَّ)، ولو نصبتهما على وقوع الفعل كان صوابًا، كأنك قلت: وليشهد الخامسةَ بأنَّ لعنة الله[2].

التفسير:

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤ ﴾.

في هذه الآية الشريفة حكمُ مَن شَتَمَ وقذف بالفاحشة أهل العفاف رجالا أو نساء، ثم لم يأت بأربعة شهود عدول يشهدون معه على رؤية الفاحشة، فإنّه يُجلد بالسوط ثمانين جلدة، ويكون بذلك فاسقا خارجا عن طاعة الله، ولا تُقبلُ شهادته أبدا.

قال الشَّافعي رحمه الله: قال اللَّه تبارك وتعالى في القَذفَة: (لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ). فلا يجوز في الزنا الشهود أقل من أربعة، بحكم الله ﷻ ثم بحكم رسوله ﷺ، فإذا لم يكملوا أربعة فهم قَذفَة، وكذلك حكم عليهم عمر بن الخطاب ﷺ؛ فجلدهم جلد القَذَفَة، ولم أعلم بين أحد لقيته ببلدنا اختلافاً فيما وصفت، من أنه لا يقبل في الزنا أقل من أربعة، وأنهم إذا لم يكملوا أربعة حُدُّوا حدَّ القذف، وليس هكذا شيء من الشهادات غير شهود الزنا[3].

قال العلامة الشنقطي: "أجمع العلماء على أن الزاني ذكراً كان أو أنثى، إذا قامت عليه البينة، أنهم رأوه أدخل فرجه في فرجها كالمرود في المكحلة: أنه يجب رجمُهُ إذا كان محصناً، وأجمع العلماء أن بينة الزنى، لا يقبل فيها أقل من أربعة عدول ذكور، فإن شهد

(١) النشر في القراءات العشر لابن الجزري ٣٣٠/٢.

(٢) معاني القراءات للأزهري ٢٠٢/٢، ٢٠٣.

(٣) تفسير الإمام الشافعي، جمع وتحقيق ودراسة د.أحمد الفرّان ١١٣٥/٣.

ثلاثة عدول، لم تقبل شهادتهم وحدوا، لأنهم قذفة كاذبون، لأن الله تعالى يقول ﴿ والذين يَرْمُونَ المحصنات ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فاجلدوهم ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾ [النور: ٤] ويقول جلا وعلا: ﴿ واللاتي يَأْتِينَ الفاحشة مِن نِّسَآئِكُمْ فاستشهدوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعةً مِّنْكُمْ...﴾ [النساء: ١٥]، وكلتا الآيتين المذكورتين صريحة في أن الشهود في الزنى، لا يجوز أن يكونوا أقل من أربعة، وقد قال جل وعلا ﴿ لَّوْلاَ جَآءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِالشُّهَدَآءِ فأولئك عِندَ الله هُمُ الكاذبون ﴾ [النور: ١٣] وقد بينت هذه الآية اشتراط الأربعة كما في الآيتين المذكورتين قبلها، زادت أن القاذفين إذ لم يأتوا بالشهداء الأربعة هم الكاذبون عند الله"(١).

والقذْفُ من كبائر الذنوب والموبقات، فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: "اجتنبوا السبع الموبقات"، قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: "الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات"(٢).

قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥ ﴾.

أي: إلا من تابَ وندمَ وأكذبَ نفسه، ورجع عن اتهامه، وأصلح أعماله؛ فإن الله غفّار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى.

قال الإمام ابن كثير: "فذهب الإمام مالك والشافعي وأحمد إلى أنه إذا تاب قُبلت شهادته، وارتفع عنه حكمُ الفسق، ونصّ عليه سعيدُ بن المسيَّب سيد التابعين، وجماعة من السلف أيضا"(٣).

قلتُ: وهو الراجح الذي يقتضيه الأثر والنظرُ، فعن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: (وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا) ثم قال: فمَن تاب وأصلح، فشهادتُهُ في كتاب الله تُقبلُ"(٤).

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٦ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٧ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد الأمين الشنقيطي ٣٨٥/٥.

(٢) صحيح البخاري – كتاب الوصايا– باب قول الله تعالى: إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما، حديث رقم ٢٧٦٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٠٩/٤.

(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري ١٧٢/١٧.

أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾.

هذه الآيات هي آيات الملاعنة بين الزوجين.

واللعان: (مُشْتَقٌّ مِنْ اللَّعْنِ؛ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ الزَّوْجَيْنِ يَلْعَنُ نَفْسَهُ فِي الْخَامِسَةِ إنْ كَانَ كَاذِبًا. وَقَالَ الْقَاضِي: سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّ الزَّوْجَيْنِ لَا يَنْفَكَّانِ مِنْ أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمَا كَاذِبًا، فَتَحْصُلُ اللَّعْنَةُ عَلَيْهِ، وَهِيَ الطَّرْدُ وَالْإِبْعَادُ) [1]. (والتَّلَاعُنُ والْمُلَاعَنَةُ: أن يلعن كلّ واحد منهما نفسه أو صاحبه)[2].

سبب نزول هذه الآيات:

عن سهل بن سعد ﷺ أن عويمرا، أتى عاصم بن عدي وكان سيد بني عجلان، فقال: كيف تقولون في رجل وجد مع امرأته رجلا، أيقتله فتقتلونه، أم كيف يصنع؟ سل لي رسول الله ﷺ عن ذلك، فأتى عاصم النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله فكره رسول الله ﷺ المسائل، فسأله عويمر، فقال: إن رسول الله ﷺ كره المسائل وعابها، قال عويمر: والله لا أنتهي حتى أسأل رسول الله ﷺ عن ذلك، فجاء عويمر، فقال: يا رسول الله رجل وجد مع امرأته رجلا أيقتله فتقتلونه أم كيف يصنع؟ فقال رسول الله ﷺ: "قد أنزل الله القرآن فيك وفي صاحبتك"، فأمرهما رسول الله ﷺ بالملاعنة بما سمى الله في كتابه فلاعنها، ثم قال: يا رسول الله، إن حبستها فقد ظلمتها فطلقها، فكانت سنة لمن كان بعدهما في المتلاعنين، ثم قال رسول الله ﷺ: "انظروا فإن جاءت به أسحم، أدعج العينين، عظيم الأليتين، خَدَلَّجَ الساقين، فلا أحسب عويمرا إلا قد صدق عليها، وإن جاءت به أحيمر كأنه وَحَرَةُ، فلا أحسب عويمرا إلا قد كذب عليها"، فجاءت به على النعت الذي نعت به رسول الله ﷺ من تصديق عويمر، فكان بعد ينسب إلى أمه"[3].

عن ابن عباس أن هلال بن أمية، قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك ابن سحماء، فقال النبي ﷺ: "البينة أو حد في ظهرك"، فقال: يا رسول الله، إذا رأى أحدنا على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة، فجعل النبي ﷺ يقول: "البينة وإلا حد في ظهرك" فقال هلال:

---

(١) المغني لابن قدامة ١٢٢/١١.

(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص٧٤١.

(٣) صحيح البخاري – كتاب تفسير القرآن– سورة البقرة – باب قوله عز وجل: والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم، حديث رقم ٤٧٤٥.

والذي بعثك بالحق إني لصادق، فلينزلن الله ما يبرئ ظهري من الحد، فنزل جبريل وأنزل عليه: والذين يرمون أزواجهم فقرأ حتى بلغ: "إن كان من الصادقين" فانصرف النبي ﷺ فأرسل إليها، فجاء هلال فشهد، والنبي ﷺ يقول: "إن الله يعلم أن أحدكما كاذب، فهل منكما تائب" ثم قامت فشهدت، فلما كانت عند الخامسة وقفوها، وقالوا: إنها موجبة، قال ابن عباس: فتلكأت ونكصت، حتى ظننا أنها ترجع، ثم قالت: لا أفضح قومي سائر اليوم، فمضت، فقال النبي ﷺ: "أبصروها، فإن جاءت به أكحل العينين، سابغ الأليتين، خدلج الساقين، فهو لشريك ابن سحماء"، فجاءت به كذلك، فقال النبي ﷺ: "لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن"(١).

وروى الإمام أحمد بسنده عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ: (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا) قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ ﷺ وَهُوَ سَيِّدُ الْأَنْصَارِ: أَهَكَذَا أُنْزِلَتْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَلَا تَسْمَعُونَ إِلَى مَا يَقُولُ سَيِّدُكُمْ؟ " قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، لَا تَلُمْهُ، فَإِنَّهُ رَجُلٌ غَيُورٌ، وَاللهِ مَا تَزَوَّجَ امْرَأَةً قَطُّ إِلَّا بِكْرًا، وَمَا طَلَّقَ امْرَأَةً لَهُ قَطُّ، فَاجْتَرَأَ رَجُلٌ مِنَّا عَلَى أَنْ يَتَزَوَّجَهَا مِنْ شِدَّةِ غَيْرَتِه، فَقَالَ سَعْدٌ: وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّهَا حَقٌّ، وَأَنَّهَا مِنَ اللهِ وَلَكِنِّي قَدْ تَعَجَّبْتُ أَنِّي لَوْ وَجَدْتُ لَكَاعًا قَدْ تَفَخَّذَهَا رَجُلٌ لَمْ يَكُنْ لِي أَنْ أَهِيجَهُ وَلَا أُحَرِّكَهُ، حَتَّى آتِيَ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ، فَوَاللهِ لَا آتِي بِهِمْ حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ، قَالَ: فَمَا لَبِثُوا إِلَّا يَسِيرًا، حَتَّى جَاءَ هِلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ، وَهُوَ أَحَدُ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ تِيبَ عَلَيْهِمْ، فَجَاءَ مِنْ أَرْضِهِ عِشَاءً، فَوَجَدَ عِنْدَ أَهْلِهِ رَجُلًا، فَرَأَى بِعَيْنَيْهِ، وَسَمِعَ بِأُذُنَيْهِ، فَلَمْ يَهِجْهُ، حَتَّى أَصْبَحَ، فَغَدَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي جِئْتُ أَهْلِي عِشَاءً، فَوَجَدْتُ عِنْدَهَا رَجُلًا، فَرَأَيْتُ بِعَيْنَيَّ، وَسَمِعْتُ بِأُذُنَيَّ، فَكَرِهَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا جَاءَ بِهِ، وَاشْتَدَّ عَلَيْهِ، وَاجْتَمَعَتِ الْأَنْصَارُ، فَقَالُوا: قَدِ ابْتُلِينَا بِمَا قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، الْآنَ يَضْرِبُ رَسُولُ اللهِ ﷺ هِلَالَ بْنَ أُمَيَّةَ، وَيُبْطِلُ شَهَادَتَهُ فِي الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ هِلَالٌ: وَاللهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِي مِنْهَا مَخْرَجًا، فَقَالَ هِلَالٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي قَدْ أَرَى مَا اشْتَدَّ عَلَيْكَ مِمَّا جِئْتُ بِهِ، وَاللهُ يَعْلَمُ إِنِّي لَصَادِقٌ، فَوَاللهِ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُرِيدُ أَنْ يَأْمُرَ بِضَرْبِهِ إِذْ نَزَلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ الْوَحْيُ، وَكَانَ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ عَرَفُوا ذَلِكَ فِي تَرَبُّدِ جِلْدِهِ يَعْنِي، فَأَمْسَكُوا عَنْهُ حَتَّى

(١) البخاري – كتاب تفسير القرآن– سورة البقرة – باب ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن...، حديث رقم ٤٧٤٧.

فَرَغَ مِنَ الوَحْيِ، فَنَزَلَتْ: (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ) الْآيَةَ كُلَّهَا، فَسُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: " أَبْشِرْ يَا هِلَالُ، فَقَدْ جَعَلَ اللهُ لَكَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا " فَقَالَ هِلَالٌ: قَدْ كُنْتُ أَرْجُو ذَاكَ مِنْ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " أَرْسِلُوا إِلَيْهَا " فَأَرْسَلُوا إِلَيْهَا، فَجَاءَتْ، فَتَلَاهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَيْهِمَا، وَذَكَّرَهُمَا، وَأَخْبَرَهُمَا أَنَّ عَذَابَ الْآخِرَةِ أَشَدُّ مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا، فَقَالَ هِلَالٌ: وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، لَقَدْ صَدَقْتُ عَلَيْهَا، فقالَتْ: كَذَبَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " لَاعِنُوا بَيْنَهُمَا "، فَقِيلَ لِهِلَالٍ: اشْهَدْ، فَشَهِدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ، فَلَمَّا كَانَ فِي الْخَامِسَةِ، قِيلَ: يَا هِلَالُ، اتَّقِ اللهَ، فَإِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ، وَإِنَّ هَذِهِ الْمُوجِبَةُ الَّتِي تُوجِبُ عَلَيْكَ الْعَذَابَ فَقَالَ: لَا وَاللهِ لَا يُعَذِّبُنِي اللهُ عَلَيْهَا، كَمَا لَمْ يَجْلِدْنِي عَلَيْهَا، فَشَهِدَ فِي الْخَامِسَةِ: أَنَّ لَعْنَةَ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الكَاذِبِينَ، ثُمَّ قِيلَ لَهَا: اشْهَدِي أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللهِ: إِنَّهُ لَمِنَ الكَاذِبِينَ فَلَمَّا كَانَتِ الْخَامِسَةُ قِيلَ لَهَا: اتَّقِ اللهَ فَإِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ، وَإِنَّ هَذِهِ الْمُوجِبَةُ الَّتِي تُوجِبُ عَلَيْكِ الْعَذَابَ، فَتَلَكَّأَتْ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَتْ: وَاللهِ لَا أَفْضَحُ قَوْمِي، فَشَهِدَتْ فِي الْخَامِسَةِ: أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ، فَفَرَّقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَهُمَا، وَقَضَى أَنْ لَا يُدْعَى وَلَدُهَا لِأَبٍ، وَلَا تُرْمَى هِيَ بِهِ وَلَا يُرْمَى وَلَدُهَا، وَمَنْ رَمَاهَا أَوْ رَمَى وَلَدَهَا، فَعَلَيْهِ الْحَدُّ، وَقَضَى أَنْ لَا بَيْتَ لَهَا عَلَيْهِ، وَلَا قُوتَ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمَا يَتَفَرَّقَانِ مِنْ غَيْرِ طَلَاقٍ، وَلَا مُتَوَفًّى عَنْهَا، وَقَالَ: "إِنْ جَاءَتْ بِهِ أُصَيْهِبَ، أُرَيْسِحَ، حَمْشَ السَّاقَيْنِ، فَهُوَ لِهِلَالٍ، وَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَوْرَقَ جَعْدًا، جُمَالِيًّا، خَدَلَّجَ السَّاقَيْنِ، سَابِغَ الْأَلْيَتَيْنِ، فَهُوَ لِلَّذِي رُمِيَتْ بِهِ" فَجَاءَتْ بِهِ أَوْرَقَ، جَعْدًا، جُمَالِيًّا، خَدَلَّجَ السَّاقَيْنِ، سَابِغَ الْأَلْيَتَيْنِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "لَوْلَا الْأَيْمَانُ، لَكَانَ لِي وَلَهَا شَأْنٌ " قَالَ عِكْرِمَةُ: "فَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ أَمِيرًا عَلَى مِصْرٍ، وَكَانَ يُدْعَى لِأُمِّهِ وَمَا يُدْعَى لِأَبٍ"(١).

وقد جمع الإمام المحقق ابن حجر بين هذه الروايات، فقال: (وَقَدِ اخْتَلَفَ الْأَئِمَّةُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ فَمِنْهُمْ مَنْ رَجَّحَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي شَأْنِ عُوَيْمِرٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ رَجَّحَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي شَأْنِ هِلَالٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ جَمَعَ بَيْنَهُمَا؛ بِأَنَّ أَوَّلَ مَنْ وَقَعَ لَهُ ذَلِكَ هِلَالٌ، وَصَادَفَ مَجِيءُ عُوَيْمِرٍ أَيْضًا؛ فَنَزَلَتْ فِي شَأْنِهِمَا مَعًا فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ... وَلَا مَانِعَ أَنْ تَتَعَدَّدَ الْقِصَصُ

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل – ومن مسند بني هاشم– مسند عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، ٣٦/٤، حديث رقم ٢١٣١. وقال العلامة الأرناؤوط: حديث حسن. وقال الإمام ابن كثير: ولهذا الحديث شواهد كثيرة في الصحاح وغيرها من وجوه كثيرة. انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥١١/٤.

وَيَتَّحِدَ النُّزُولُ... وَيُحْتَمَلُ أَنَّ النُّزُولَ سَبَقَ بِسَبَبِ هِلَالٍ، فَلَمَّا جَاءَ عُوَيْمِرٌ؛ وَلَمْ يَكُنْ عَلِمَ بِمَا وَقَعَ لِهِلَالٍ، أَعْلَمَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِالْحُكْمِ، وَلِهَذَا قَالَ فِي قِصَّةِ هِلَالٍ: فَنَزَلَ جِبْرِيلُ عليه السلام. وَفِي قِصَّةِ عُوَيْمِرٍ: قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ فِيكَ فَيُؤول قَوْلُهُ: قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ فِيكَ، أَيْ: وَفِيمَنْ كَانَ مثلك) (١).

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٧ ﴾.

والمعنى: والذين يقذفون زوجاتهم بفاحشة الزنا ولم يكن شهداءُ أربعة يشهدون لهم بصحة قذفهم لزوجاتهم؛ فعلى الزواج حينئذ أن يشهد أمام الحاكم الشرعي أربع مرات، كل شهادة عن شاهد، يقول فيها: أشهد بالله إني صادق فيما قذفتُها (زوجته) به من فاحشة الزنا. ويزيد شهادة خامسة، بأن يدعو على نفسه بلعنة الله إن كان كاذبا في دعواه.

قوله تعالى: ﴿ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٨ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٩ ﴾.

أي: ويدفعُ عن الزوجة – المقذوفة بفاحشة الزنا – عقوبة الحدَّ أن تشهدَ أربع شهادات بالله فتقول: أشهد بالله إنه لكاذبٌ في قذفه لها بفاحشة الزنا. فهذه أربع شهادات منها مقابل شهادات الزوج القاذف الأربع. وتزيدُ شهادة خامسةً بأن تدعو على نفسها بوجوب الغضب عليها من الله تعالى إن كان زوجها صادقا في قذفه لها. ثم يُفرّق الحاكم الشرعي بينهما.

وهل الفرقة بين المتلاعنين فسخٌ للعقد أو طلاقٌ؟ فيه نزاع بين أهل العلم.

قال الإمام ابن قدامة: (ولنا أنها فُرقة توجب تحريما مؤبدا؛ فكانت فسخاً كفُرقة الرضاع، ولأن اللعان ليس بصريح في الطلاق، ولا نوى به الطلاق...) (٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ۝١٠ ﴾.

أي: ولولا فضل الله عليكم أيها الناس، ورحمته بكم، وأنّه عوّاد على خلقه بلطفه وطوْله، حكيم في تدبيره إياهم، وسياسته لهم، لعاجلكم بالعقوبة على معاصيكم، وفضح أهل الذنوب منكم بذنوبهم، ولكنه ستر عليكم ذنوبكم، وترك فضيحتكم بها عاجلا؛ رحمة

(١) فتح الباري لابن حجر ٣٠٤/٨، ٣٠٥.

(٢) المغني لابن قدامة ١٤٧/١١.

منه بكم، وتفضلا عليكم، فاشكروا نعمه، وانتهوا عن التقدم عما نهاكم من معاصيه... وترك الجواب في ذلك اكتفاء بمعرفة السامع المراد منه"[١]. وقال البيضاوي: متروكُ الجوابِ للتعظيم أي: لفضحكم، وعاجلكم بالعقوبة) [٢].

قال الإمام ابن كثير في هذه الآيات: فيها فرَجٌ للأزواج وزيادة مخرج إذا قذف أحدهم زوجته، وتعسّر عليه إقامة البينة...) [٣].

ويستفاد من الآيات:

١-بيان شناعة القذف، ويدل لذلك لفظة الرمي لشدته وإيذائه، كأنه رمي حسِّي.

قال الراغب: الرَّمْيُ يقال في الأعيان كالسّهم والحجر، نحو: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [٤]، ويقال في المقال، كناية عن الشّتم كالقذف، نحو: ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ ﴾[٥]، [٦].

٢-بيان حكم قذف الزوج زوجه من غير شهود (اللعان).

٣-بيان حد القذف فيمن قذف العفيف من المؤمنين والمؤمنات، وهو ثمانون جلدةً.

٤-بيان فسق القاذف، وسقوط عدالته؛ إلا أن يتوب الله تعالى.

٥- الله تعالى لا يتعاظمه ذنبٌ؛ فهو يغفر لمن استغفر، ويتوب على من تاب توبة نصوحاً، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[٧].

فعن ابن عباس أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا، وزنوا وأكثروا، فأتوا محمدا ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن، لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزل: والذين لا يدعون مع الله إلها آخر، ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا يزنون ونزلت قل يا عبادي الذين

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري ١٨٨/١٧.

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ١٠٠/٤.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٠٩/٤.

(٤) سورة الأنفال: ١٧.

(٥) سورة النور: ٦.

(٦) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ص٣٦٦.

(٧) سورة الزمر: ٥٣.

أسرفوا على أنفسهم، لا تقنطوا من رحمة الله"[1]، وقال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾[2].

٦-رعاية الأعراض والاحتياط لها وستر الناس؛ ولذلك شُدّد الشارع في الإشهاد كمّا وكيفا؛ لئلا تكون أعراض الناس كلأً مباحا لأهل الفسق والفجور.

٧-بيان صفة اللعان.

٨-اللعان موجبٌ للعنة الزوج إن كان من الكاذبين، وموجبٌ لإقامة الحدِّ على الزوجة؛ إن أقرتْ ولم تدفع الدعوى عليها بأربع شهادات: إنه لمن الكاذبين، والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين.

٩-بيان فضل الله ورحمته بعباده حيث شرّع هذه الأحكام التي فيها تمامُ مصالحهم.

١٠-إثبات اسمي "التواب" و"الحكيم" لله تعالى.

الدرس الثالث

(حادثة الإفك)

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾.

---

(١) صحيح البخاري – كتاب تفسير القرآن- سورة البقرة – باب قوله: يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا، حديث رقم ٤٨١٠.

(٢) سورة طه: ٨٢.

القراءات وتوجيهها:

قال العلامة ابن الجزري: وَاخْتَلَفُوا فِي: كِبْرَهُ فَقَرَأَ يَعْقُوبُ بِضَمِّ الْكَافِ، وَهِيَ قِرَاءَةُ أَبِي رَجَاءٍ وَحُمَيْدِ بْنِ قَيْسٍ وَسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ وَيَزِيدَ بْنِ قُطَيْبٍ وَعَمْرَةَ بِنْتِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِكَسْرِهَا، وَهُمَا مَصْدَرَانِ لِكَبُرَ الشَّيْءُ أَيْ عَظُمَ لَكِنَّ الْمُسْتَعْمَلَ فِي السِّنِّ الضَّمُّ أَيْ وَقِيلَ بِالضَّمِّ مُعْظَمُهُ وَبِالْكَسْرِ الْبَدَاءَةُ بِالْإِفْكِ وَقِيلَ الْإِثْمُ"[1].

وَاخْتَلَفُوا فِي (رَءُوفٌ) حَيْثُ وَقَعَ فَقَرَأَ الْبَصْرِيَّانِ، وَالْكُوفِيُّونَ سِوَى حَفْصٍ بِقَصْرِ الْهَمْزَةِ مِنْ غَيْرِ وَاوٍ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِوَاوٍ بَعْدَ الْهَمْزَةِ[2].

قال الزجاج: فمن قرأ (كِبْرَه) فمعناه من تَوَلَّى الإثْمَ في ذلك، ومن قرأ كُبْرَه أراد مُعْظَمَهُ[3].

وفي قوله تعالى (رَءُوفٌ) قال أبو منصور: هما لغتان، ورَءُوفٌ على (فَعُول) أشبه بالصفات[4].

التفسير:

هذه العشر الآيات كلها نزلت في شأن عائشة أم المؤمنين –رضي الله عنها– حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكذب البحت، والفرية التي غار الله تعالى لها ولنبيه ﷺ، فأنزل براءتها صيانة لعرض الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام) [5].

سبب نزول هذه الآيات:

عن عائشة –رضي الله عنها– زوج النبي ﷺ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، فبرأها الله منه، قال الزهري: وكلهم حدثني طائفة من حديثها، وبعضهم أوعى من بعض، وأثبت له اقتصاصا، وقد وعيت عن كل واحد منهم الحديث الذي حدثني عن عائشة، وبعض حديثهم يصدق بعضا زعموا أن عائشة، قالت: كان رسول الله ﷺ، إذا أراد أن يخرج سفرا أقرع بين أزواجه، فأيتهن خرج سهمها، خرج بها معه، فأقرع بيننا في غزاة غزاها، فخرج سهمي، فخرجت معه بعد ما أنزل الحجاب، فأنا أحمل في هودج،

---

(١) النشر في القراءات العشر لابن الجزري ٣٣١/٢.

(٢) المرجع السابق ٢٢٣/٢.

(٣) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣٥/٤.

(٤) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ١٨١/١.

(٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥١٤/٤.

وأنزل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك، وقفل ودنونا من المدينة آذن ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى الرحل، فلمست صدري، فإذا عقد لي من جزع أظفار قد انقطع، فرجعت، فالتمست عقدي، فحبسني ابتغاؤه، فأقبل الذين يرحلون لي، فاحتملوا هودجي، فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافا لم يثقلن ولم يغشهن اللحم، وإنما يأكلن العلقة من الطعام، فلم يستنكر القوم حين رفعوه ثقل الهودج، فاحتملوه وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا، فوجدت عقدي بعد ما استمر الجيش، فجئت منزلهم وليس فيه أحد، فأممت منزلي الذي كنت به، فظننت أنهم سيفقدونني، فيرجعون إلي، فبينا أنا جالسة غلبتني عيناي، فنمت وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش، فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني وكان يراني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين أناخ راحلته فوطئ يدها، فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا معرسين في نحر الظهيرة، فهلك من هلك، وكان الذي تولى الإفك عبد الله بن أبي ابن سلول، فقدمنا المدينة، فاشتكيت بها شهرا والناس يفيضون من قول أصحاب الإفك، ويريبني في وجعي، أني لا أرى من النبي ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أمرض، إنما يدخل فيسلم، ثم يقول: " كيف تيكم "، لا أشعر بشيء من ذلك حتى نقهت، فخرجت أنا وأم مسطح قبل المناصع متبرزنا لا نخرج إلا ليلا إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريبا من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في البرية أو في التنزه، فأقبلت أنا وأم مسطح بنت أبي رهم نمشي، فعثرت في مرطها، فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئس ما قلت، أتسبين رجلا شهد بدرا، فقالت: يا هنتاه، ألم تسمعي ما قالوا؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضا على مرضي، فلما رجعت إلى بيتي دخل علي رسول الله ﷺ، فسلم فقال: " كيف تيكم "، فقلت: ائذن لي إلى أبوي، قالت: وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما، فأذن لي رسول الله ﷺ، فأتيت أبوي فقلت لأمي: ما يتحدث به الناس؟ فقالت: يا بنية هوني على نفسك الشأن، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر، إلا أكثرن عليها، فقلت: سبحان الله، ولقد يتحدث الناس بهذا، قالت: فبت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت، فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي، يستشيرهما في

فراق أهله، فأما أسامة، فأشار عليه بالذي يعلم في نفسه من الود لهم، فقال أسامة: أهلك يا رسول الله، ولا نعلم والله إلا خيرا، وأما علي بن أبي طالب فقال: يا رسول الله، لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وسل الجارية تصدقك، فدعا رسول الله ﷺ بريرة، فقال: " يا بريرة هل رأيت فيها شيئا يريبك؟ "، فقالت بريرة: لا والذي بعثك بالحق، إن رأيت منها أمرا أغمصه عليها قط، أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن العجين، فتأتي الداجن فتأكله، فقام رسول الله ﷺ من يومه، فاستعذر من عبد الله بن أبي ابن سلول، فقال رسول الله ﷺ: " من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرا، وقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي "، فقام سعد بن معاذ، فقال: يا رسول الله، أنا والله أعذرك منه إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا، ففعلنا فيه أمرك، فقام سعد بن عبادة – وهو سيد الخزرج، وكان قبل ذلك رجلا صالحا ولكن احتملته الحمية – فقال: كذبت لعمر الله، لا تقتله، ولا تقدر على ذلك، فقام أسيد بن حضير فقال: كذبت لعمر الله، والله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فثار الحيان الأوس، والخزرج حتى هموا، ورسول الله ﷺ على المنبر، فنزل، فخفضهم حتى سكتوا، وسكت وبكيت يومي لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، فأصبح عندي أبواي، وقد بكيت ليلتين ويوما حتى أظن أن البكاء فالق كبدي، قالت: فبينا هما جالسان عندي، وأنا أبكي، إذ استأذنت امرأة من الأنصار، فأذنت لها، فجلست تبكي معي، فبينا نحن كذلك إذ دخل رسول الله ﷺ، فجلس ولم يجلس عندي من يوم قيل في ما قيل قبلها، وقد مكث شهرا لا يوحى إليه في شأني شيء، قالت: فتشهد ثم قال: " يا عائشة، فإنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة، فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب، فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه، ثم تاب تاب الله عليه "، فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته، قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، وقلت لأبي: أجب عني رسول الله ﷺ، قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله ﷺ فيما قال، قالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، قالت: وأنا جارية حديثة السن، لا أقرأ كثيرا من القرآن، فقلت: إني والله لقد علمت أنكم سمعتم ما يتحدث به الناس، ووقر في أنفسكم وصدقتم به، ولئن قلت لكم إني بريئة، والله يعلم إني لبريئة لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر، والله يعلم أني بريئة لتصدقني، والله ما أجد لي ولكم

مثلا، إلا أبا يوسف إذ قال: فصبر جميل، والله المستعان على ما تصفون، ثم تحولت على فراشي وأنا أرجو أن يبرئني الله، ولكن والله ما ظننت أن ينزل في شأني وحيا، ولأنا أحقر في نفسي من أن يتكلم بالقرآن في أمري، ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله، فوالله ما رام مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت، حتى أنزل عليه الوحي، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق في يوم شات، فلما سري عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها، أن قال لي: "يا عائشة احمدي الله، فقد برأك الله "، فقالت لي أمي: قومي إلى رسول الله ﷺ، فقلت: لا والله، لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله، فأنزل الله تعالى: إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم الآيات، فلما أنزل الله هذا في براءتي، قال أبو بكر الصديق ﷺ وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه: والله لا أنفق على مسطح شيئا أبدا بعد ما قال لعائشة، فأنزل الله تعالى: ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا إلى قوله غفور رحيم فقال أبو بكر: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح الذي كان يجري عليه، وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش عن أمري، فقال: "يا زينب، ما علمت ما رأيت "، فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت عليها إلا خيرا، قالت: وهي التي كانت تساميني، فعصمها الله بالورع"(١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

والإفك: البهتان وأسوأ الكذب"(٢).

وقال الراغب: الإفكُ: كلُّ مصروف عن وجهه الذي يحق أن يكون عليه، ومنه قيل للرياح العادلة عن المهابّ: مُؤْتَفِكَة. قال تعالى: (وَالْمُؤْتَفِكاتُ بِالْخاطِئَةِ)(٣)، وقال تعالى: (وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوى)(٤)، وقوله تعالى: (قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ)(١)، أي: يصرفون عن

(١) صحيح البخاري – كتاب الشهادات– باب تعديل النساء بعضهن بعضا، حديث رقم ٢٦٦١. وعند الإمام مسلم في صحيحه– كتاب التوبة– باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف، حديث رقم: ٢٧٧٠.

(٢) مجاز القرآن لأبي عبيد ٢/٧٠.

(٣) سورة الحاقة: ٩.

(٤) سورة النجم: ٥٣.

الحق في الاعتقاد إلى الباطل، ومن الصدق في المقال إلى الكذب، ومن الجميل في الفعل إلى القبيح، ومنه قوله تعالى: (يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ)[٢]، (فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)[٣]، وقوله تعالى: (أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا)[٤]، فاستعملوا الإفك في ذلك لمّا اعتقدوا أنّ ذلك صرف من الحق إلى الباطل، فاستعمل ذلك في الكذب لما قلنا، وقال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ) [٥]،[٦].

والعُصْبَةُ: الجماعة الذين أَمْرُهُمْ وَاحِد يتابع بعضهم بعضاً في الفِعْلِ ويتعصَّبُ بعضهم لِبَعْضٍ"[٧].

والمعنى: إن الذينَ جاؤوا بهذا الكذب والبهتان المفترى جماعةٌ منكم ينتسبون للإسلام؛ فلا تحسبوه شراً محضا، بل هو خير لكم؛ لما حصل فيه من تبرئة أم المؤمنين عائشة –رضي الله عنها– وتعظيمها، ولما حصل فيه من رفع الدرجات، وتكفير السيئات، وتمحيص المسلمين.

قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾.

أي: لكل واحد تكلّم في هذا الإفك (رمي أم المؤمنين عائشة –رضي الله عنها– بالفاحشة) جزاءُ فعله، من العذاب العظيم، عند الله جل وعلا.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ﴾.

أي: ابتدأ بهذا الإفك وتحمّل معظمه، ويستوشيه ويُشِيعُهُ، وهو عبد الله بن أُبيّ بن سلول – قبحه الله وأخزاه – كبير المنافقين.

وفي حديث البخاري السابق قالت عائشة –رضي الله عنها–: وكان الذي تولى الإفك عبد الله بن أبي ابن سلول... وفيه أيضا: فقام رسول الله ﷺ من يومه، فاستعذر من عبد الله بن أبي ابن سلول، فقال رسول الله ﷺ: "من يعذُرُني من رجل بلغني أذاه في أهلي"[٨].

---

(١) التوبة: ٣٠.

(٢) سورة الذاريات: ٩.

(٣) سورة الأنعام: ٩٥.

(٤) الأحقاف: ٢٢.

(٥) سورة النور: ١١.

(٦) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ٧٩، ٨٠.

(٧) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ١٥٥/٤.

(٨) صحيح البخاري – كتاب الشهادات– باب تعديل النساء بعضهن بعضا، حديث رقم ٢٦٦١. وعند الإمام مسلم في صحيحه– كتاب التوبة– باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف، حديث رقم: ٢٧٧٠.

قوله تعالى: ﴿ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾، أي: الخلودُ في الدرك الأسفل من النار في الآخرة. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾.

لولا هنا عرْضٌ، والمعنى: أنه كان للمؤمنين والمؤمنات أن يقيسوا ذلك الأمر على أنفسهم؛ فإن كان ذلك يبعد في حقهم، فهو في حق عائشة –رضي الله عنها– أبعدُ لفضلها[2].

قال الإمام ابن كثير: هذا تأديب من الله تعالى للمؤمنين في قضية عائشة –رضي الله عنها– ؛ حين أفاض بعضهم في الكلام السيء، وما ذُكر من شأن الإفك، فقال (لولا) بمعنى: هلّا إذ سمعتموه، أي: ذلك الكلام الذي رُميت به أم المؤمنين –رضي الله عنها– ظنّ المؤمنون والمؤمنون بأنفسهم خيرا، أي قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم، فإن كان لا يليق بهم، فأم المؤمنين أولى بالبراءة منه، بطريق الأولى والأحرى[3].

ورُوي أنَّ هذا النظرُ السديد وقع من أبي أيوب الأنصاري وامرأته، وذلك أنه دخل عليها، فقالت له: يا أبو أيوب: أسمعتَ ما قيل؟ فقال: نعم، وذلك الكذبُ، أكنتِ أنت يا أم أيوب تفعلين ذلك؟ قالت: لا والله. قال: فعائشة والله أفضل منكِ. قالت أم أيوب –رضي الله عنها–: نعم"[4].

قوله تعالى: ﴿ بِأَنفُسِهِمْ ﴾؛ لأن أهل الإسلام كلهم بمنزلة نفسٍ واحدة؛ لأنهم أهل ملّة واحدة[5].

فأوجب اللهُ سبحانه على المسلمين إذا سمعوا رجلا يقذف أحدا ويذكُرُه بقبيح لا يعرفونه به؛ أن يُنكروا عليه ويُكذّبوه. قال العلماء: إن في الآية دليلا على أن درجة الإيمان والعفاف لا يُزيلها الخبر المحتمل، وإن شاعَ[6].

---

(١) سورة النساء: ١٤٥.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جُزيّ الكلبي ٨٥/٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٢١/٤.

(٤) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي ١٧٠/٤.

(٥) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري ٢١٢/١٧.

(٦) فتح القدير للشوكاني ١٨/٤.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ١٢ ﴾

وقالوا بعد ظنهم في أنفسهم وفي المؤمنين خيرا: هذا كذب بيِّنٌ ظاهرٌ على أُمّ المؤمنين –رضي الله عنها–.

قوله تعالى: ﴿ لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ ﴾.

أي: هلّا جاء القاذفون الكاذبون الخائضون في عرض النبي ﷺ على ما قالوه بأربعة شهود عُدُول يشهدون لصحة ما جاؤوا به!

قوله تعالى: ﴿ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٣ ﴾.

أي: فإذ لم يأتوا بالشهداء الأربعة على ما ذُكِر فأولئك هم الكاذبون عند الله تعالى.

قال الزمخشري: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: "أي في حكمه وشريعته كاذبين. وهذا توبيخ وتعنيف للذين سمعوا الإفك فلم يجدوا في دفعه وإنكاره، واحتجاج عليهم بما هو ظاهر مكشوف في الشرع: من وجوب تكذيب القاذف بغير بينة، والتنكيل به إذا قذف امرأة محصنة من عرض نساء المسلمين، فكيف بأمّ المؤمنين الصدّيقة بنت الصدّيق حرمة رسول الله ﷺ وحبيبة حبيب الله؟"(١).

قوله تعالى: ﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٤ ﴾،

أي: لولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة أيها الخائضون في أمر عائشة –رضي الله عنها– ؛ بحيث قَبِلَ توبتَكم، وعفا عنكم، وشملكم إحسانُه؛ لأصابكم العذاب العظيم بسبب خوضكم في شأن أم المؤمنين عائشة –رضي الله عنها–.

قوله تعالى: ﴿ إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ١٥ ﴾.

هذا عتاب من الله تعالى بليغ فى تعاطيهم هذا الحديث وان لم يكن المخبِر والمخبَر مصدقَيْن ولكن نفس التعاطى والتلقي من لسان الى لسان والإفاضة فى الحديث هو الذى وقع العتاب فيه(٢).

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري ٢١٩/٣.

(٢) الجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي ١١٢/٣.

وفائدة قوله تعالى: ﴿بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ و﴿ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾؛ الإشارة إلى أن ذلك الحديث كان باللسان دون القلب، إذ كانوا لم يعلموا حقيقته بقلوبهم(١).

وقد أدّب الله تعالى عباده فنهاهم عن قول الباطل، وعما ليس لهم به علم، فإنه عند الله عظيمٌ، وإن ظنّ الجهّالُ أنه هيّن.

قال الإمام ابن كثير: وتحسبون ذلك يسيرا سهلا، ولو لم تكن زوجةَ النبي ﷺ لما كان هيناً، فكيف وهي زوجة النبي ﷺ الأُمّي، خاتمُ الأنبياء، وسيد المرسلين، فعظيم عند الله أن يُقال في زوجة رسوله ما قيل! فإن الله سبحانه وتعالى يغارُ لهذا، وهو سبحانه وتعالى لا يُقدر على زوجة نبي من أنبيائه ذلك، حاشا وكلّا، ولما لم يكن ذلك؛ فكيف يكون هذا في سيدة نساء الأنبياء، وزوجةِ سيد ولد آدم على الإطلاق في الدنيا والآخرة،ولهذا قال تعالى: ﴿ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ (٢).

وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: "إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله، لا يلقي لها بالا، يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله، لا يلقي لها بالا، يهوي بها في جهنم"(٣).

وعن ابن أبي مليكة عن عائشة –رضي الله عنها–: "كانت تقرأ: إذ تلقونه بألسنتكم، وتقول: الوَلْقُ الكذبُ" قال ابن أبي مليكة: "وكانت أعلم من غيرها بذلك لأنه نزل فيها"(٤).

وحكى الطبري وغيره أن هذه اللفظة مأخوذة من الولق الذي هو الإسراع بالشيء بعد الشيء كعدد في أثر عدد، وكلام في أثر كلام، يقال: ولق في سيره إذا أسرع قال:

جاءت به عنْس من الشأم تلق(٥).

وقال ابن منظور: الوَلْقُ: أَخفُّ الطعن، وقد وَلَقه يَلِقُه وَلْقاً: يُقال وَلَقه بالسيف وَلَقاتٍ أَي: ضربات. والوَلْق أيضاً: إسراعُك بالشيء في أَثر الشيء، كعَدْوٍ في أَثر عَدْوٍ، وكلامٌ في أَثر كلام(٦).

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جُزيّ الكلبي ٨٥/٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٢٣/٤.

(٣) صحيح البخاري – كتاب الرقاق– باب حفظ اللسان، حديث رقم ٦٤٧٨.

(٤) صحيح البخاري – كتاب المغازي– باب حديث الإفك، حديث رقم ٤١٤٤.

(٥) البحر المحيط لأبي حيان ٤٠٢/٦. وانظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري ٢١٦/١٧.

(٦) لسان العرب لابن منظور ٤٩١٨/٦.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾.

أي: ولو أنكم إذ سمعتم هذا الإفك قلتم تكذيبا لمُشيعيه ومروجيه: ما يصح لنا أن نتكلم بهذا سبحانك، تنزيها لك يا رب من أن تكون حُرمة نبيك ﷺ كما وصف هؤلاء القَذَفةُ الأفاكون، وجواب لولا محذوف تقديره لكان خيرا لكم، وهذا تأديب ثانٍ للمؤمنين.

فيجب على كل مسلم ألا يظنَّ بإخوانه المسلمين إلا خيراً، لا سيما أهل الفضل وسادات المؤمنين، وأن يستعيذ بالله العليّ من الشيطان الغويّ ووساوسه ونزغاته، فإن بقي شيءٌ من وساوسه ولم يتكلم به فنرجو أن يغفرَ اللهُ تعالى ذلك، فعن أبي هريرة ﷺ يرفعه قال: "إن الله تجاوز لأمتي عما وسوست، أو حدثت به أنفسها، ما لم تعمل به أو تكلم"(١).

قوله تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾

أي: يُذكركم اللهُ تعالى وينهاكُم بمحكم التنزيل وكلامه الجليلِ لئلا ترجعوا لمثل هذا الفعل القبيح من الاتهام الكاذب، وترويج الباطل، والسكوت عن أهله، كما وقع في حادثة الإفك على أم المؤمنين عائشة –رضي الله عنها– ؛ إن كُنتُم مؤمنين بالله تعالى ووحيه وشرعه ومعظمين لرسوله وخليله ﷺ.

قال العلامة القاسمي: فإن الاتّصاف بالإيمان يصدّ عن كل مقبح(٢).

قوله تعالى: ﴿ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

أي: الدالة على الشرائع ومحاسن الآداب، دلالةً واضحة: لتتعظوا وتتأدبوا بها. أي: يُنزلها كذلك مبينة، ظاهرة الدلالة على معاينها(٣)، والله عليمٌ بكل شيء من أفعالكم وبما يصلحُ عباده، وحكيمٌ في شرعه وقدره.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾.

وهذا تأديب ثالثٌ لمن سمع شيئا من الكلام السيء فقام بذهنه منه شيء، وتكلم به، فلا يُكثر منه ويشيعه ويُذيعه، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ

---

(١) صحيح البخاري – كتاب الأيمان والنذور– باب إذا حنث ناسيا في الأيمان حديث رقم ٦٦٦٤.

(٢) محاسن التأويل للقاسمي ٣٣٩/٧..

(٣) المرجع السابق نفس النقل.

ءَامَنُواْ﴾، أي: يختارون ظهور الكلام عنهم بالقبيح (لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي ٱلدُّنْيَا) أي بالحدِّ وفي (وَٱلْآخِرَةِ) بالعذاب، و(وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) أي: فرُدُّوا الأمور إليه ترشُدُوا [1].

وأخرج الطبري بسنده الصحيح عن مجاهد قوله: (أن تشيع الفاحشة) قال: تظهر، يتحدث عن شأن عائشة –رضي الله عنها– [2].

فيحرُم على المسلم أن يُشيع الفاحشة بقوله أو فعله، أو أن يؤذي المسلمين بتتبعِ العورات والزلّاتِ والتعيير، كما يجبُ عليه أن يُميتَ الباطلَ بعدم ذكره.

فعن ابن عمر قال: صعد رسول الله ﷺ المنبر فنادى بصوت رفيع، فقال: "يا معشر من أسلم بلسانه ولم يُفْضِ الإيمان إلى قلبه، لا تؤذوا المسلمين ولا تعيِّروهم ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله" قال: ونظر ابن عمر يوما إلى البيت أو إلى الكعبة فقال: "ما أعظمك وأعظم حرمتك، والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك"[3].

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: ولولا فضلُ الله ورحمته وأنه رؤوف بعباده لعاجل بالعقوبة من وقع في حديث الإفك، ولكنه تعالى رحيمٌ بعباده، ولهذا تاب جل وعلا على التائبين، وبيّن الأحكام، وفصّل المواعظَ، وأدّب المؤمنين.

ويستفاد من الآيات:

١– براءة أم المؤمنين عائشة –رضي الله عنها– مما رماها بها أهل الإفك والنفاق في آيات تُتلى إلى يوم القيامة، وكانت –رضي الله عنها– تفتخر بهذه المنقبة والمنزلة.

٢– بيان كُفر مَن قذفَ أُم المؤمنين عائشة –رضي الله عنها– بالفاحشة بعد نزول هذه الآيات؛ لأنه تكذيب لله تعالى، وأذية لله تعالى ورسوله ﷺ والمؤمنين.

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٢٤/٤.

(٢) موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور للدكتور حكمت بشير ٤٥٧/٣. وانظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري ٢٢٠/١٧.

(٣) سنن الترمذي الجامع الصحيح كتاب الذبائح – أبواب البر والصلة عن رسول الله ﷺ باب ما جاء في تعظيم المؤمن، حديث رقم ٢٠٣٢. وحسنه العلامة الألباني في صحيح سنن الترمذي، حديث رقم ٢٠٣٢. وقال في صحيح الترغيب والترهيب: حسن صحيح، حديث رقم ٢٣٣٩.

٣- بيان حُرمة الكذبِ، وأنه دركاتٌ وظُلماتٌ بعضُه أشدُّ إثما من بعض؛ فأعظمُه الكذب على الله تعالى ورسله عليهم السلام وأتباعهم من الصدّيقين والصالحين، وسائر عباد الله أجمعين؛ ولذا وصف الله تعالى الكذب على أُمّ المؤمنين -رضي الله عنها- بالإفك، قال الإمام أبو عبيد: والإفك: البهتان وأسوأ الكذب"(١).

٤- أشد الناس بلاءً الأنبياء عليهم السلام، فعِظَمُ الجزاء مقرونٌ بعظم البلاء، فعن أبي عبيدة بن حذيفة عن عمته فاطمة أنها قالت: أتينا رسول الله ﷺ نعوده في نساء، فإذا سقاء معلق نحوه يقطر ماؤه عليه من شدة ما يجد من حر الحمى، قلنا: يا رسول الله، لو دعوت الله فشفاك، فقال: رسول الله ﷺ: "إن من أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم"(٢).

٥- المحنُ على المؤمنين -إذا صبروا ورضوا بقضاء الله وقدره- تنقلب منحاً من الله تعالى، ومغفرةً للذنوب، وعُلوا في الدرجات، فالمصيبة إذا نزلت بقضاء الله وقدره انقسم الناسُ حيالها أربعة أقسام: كافرٌ جازع، ومؤمن صابر، ومؤمن راضٍ، ومؤمن شاكر، وهذه الأخيرةُ منزلة الأنبياء عليهم السلام وأتباعهم، ثمّ يتبعها الرضا، ثم الصبرُ، وهذه المنازل الثلاثة للمؤمنين.

٦- عظمُ العقوبة وشدّتها مقرونةٌ بعظم الذنب؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾.

٧- المؤمنُ لا يظنُّ بالمؤمنين إلا خيرا.

٨- حُرْمةُ إشاعةِ الأخبار الكاذبة والخوض في ذلك، وأنه سببٌ للعذاب العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

فعن أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: "كفى بالمرء إثما أن يحدث بكل ما سمع"(٥).

---

(١) مجاز القرآن لأبي عبيد ٢/٧٠.

(٢) مسند أحمد بن حنبل - مسند الأنصار- مسند النساء - حديث فاطمة عمة أبي عبيدة، حديث رقم ٢٧٠٧٩، وصححه العلامة الشيخ شعيب الأرناؤوط.

(٣) سورة النور: ١١.

(٤) سورة النور: ١٤.

(٥) سنن أبي داود - كتاب الأدب- باب في التشديد في الكذب - حديث رقم ٤٩٩٢، وصححه العلامة الألباني في صحيح سنن أبي داود، حديث رقم ٤٩٩٢.

وعن أبي قلابة قال: قال أبو مسعود (البدري) لأبي عبد الله (حذيفة بن اليمان) أو قال أبو عبد الله لأبي مسعود: ما سمعت رسول الله ﷺ يقول: في زعموا؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "بئس مطية الرجل زعموا " قال أبو داود: " أبو عبد الله هذا: حذيفة"(١).

٩- مَنْ أَمرَّ أقوال الناسِ من أذنه على لسانه دون قلبه فحتماً سيكون من الكاذبين ومن القائلين بدون علم.

١٠- مَن تكلَّم في أعراض الناسِ دون بيّنةٍ فهو عند الله من الكاذبين، ومُستحقٌ للإثم والعقوبة.

١١- تأديب الله تعالى عباده المؤمنين وعتابُه عليهم من فضل الله ورحمته ورأفته بهم.

١٢- الخوض في أعراض المؤمنين، والتحدث بالفواحش والمعاصي، وبث الأخبار الكاذبة؛ من إشاعة الفاحشة في المجتمع المسلم، وقد رتّب الله على هذا العذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

١٣- إثبات أسماء "العليم" و"الحكيم" و"الرؤوف" و"الرحيم" لله تعالى.

الدرس الرابع

(العفو والصفح من صفات أهل الفضل)

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢١ وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٢ ﴾.

القراءات وتوجيهها:

قال العلامة ابن الجزري: وَأَسْكَنَ الطَّاءَ مِنْ (خُطُوَاتِ) أَيْنَ أَتَى نَافِعٌ وَأَبُو عَمْرٍو وَحَمْزَةُ وَخَلَفٌ وَأَبُو بَكْرٍ، وَاخْتُلِفَ عَنِ الْبَزِّيِّ، فَرَوَى عَنْهُ أَبُو رَبِيعَةَ الْإِسْكَانَ، وَرَوَى عَنْهُ ابْنُ الْحُبَابِ الضَّمَّ(٢).

---

(١) سنن أبي داود – كتاب الأدب– باب في قول الرجل: زعموا –حديث رقم ٤٩٧٢، وصححه العلامة الألباني في صحيح سنن أبي داود، حديث رقم ٤٩٧٢.

(٢) النشر في القراءات العشر لابن الجزري ٢١٦/٢.

وقال: وَاخْتَلَفُوا فِي: وَلَا يَأْتَلِ فَقَرَأَ أَبُو جَعْفَرٍ (يَتَأَلَّ) بِهَمْزَةٍ مَفْتُوحَةٍ بَيْنَ التَّاءِ وَاللَّامِ مَعَ تَشْدِيدِ اللَّامِ مَفْتُوحَةً، وَهِيَ قِرَاءَةُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَيَّاشِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ مَوْلَاهُ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ، وَهِيَ مِنَ الْأَلِيَّةِ عَلَى وَزْنِ فَعِيلَةٍ مِنَ الْأَلْوَةِ بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ وَضَمِّهَا وَكَسْرِهَا، وَهُوَ الْحَلِفُ، أَيْ: وَلَا يَتَكَلَّفُ الْحَلِفَ، أَوْ: لَا يَحْلِفُ أُولُو الْفَضْلِ أَنْ لَا يُؤْتُوا. وَدَلَّ عَلَى حَذْفِ "لَا" خُلُوُّ الْفِعْلِ مِنَ النُّونِ الثَّقِيلَةِ، فَإِنَّهَا تَلْزَمُ فِي الْإِيجَابِ. وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِهَمْزَةٍ سَاكِنَةٍ بَيْنَ الْيَاءِ وَالتَّاءِ وَكَسْرِ اللَّامِ خَفِيفَةً، إِمَّا مِنْ أَلَوْتُ، أَيْ: قَصُرْتُ، أَيْ: وَلَا تَقْصُرْ، أَوْ مِنْ آلَيْتُ أَيْ حَلَفْتُ يُقَالُ: آلَى وَأَتْلَى وَتَأَلَّى بِمَعْنًى، فَتَكُونُ الْقِرَاءَتَانِ بِمَعْنًى، وَذَكَرَ الْإِمَامُ الْمُحَقِّقُ أَبُو مُحَمَّدٍ إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْقَرَّابُ فِي كِتَابِهِ عِلَلِ الْقِرَاءَاتِ أَنَّهُ كُتِبَ فِي الْمَصَاحِفِ "يَتْلِ" قَالَ: فَلِذَلِكَ سَاغَ الِاخْتِلَافُ فِيهِ عَلَى الْوَجْهَيْنِ، انْتَهَى[1].

(خُطُوَاتِ): فالحجة لمن ضمّ أنه أتى بلفظ الجمع على حقيقة ما وجب له؛ لأنه جمع (خُطْوة) ودليله قوله: (وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ)؛ لأنه جمع غُرْفة. والحجّةُ لمن أسكن أنه خفف الكلمة لاجتماع ضمتين متواليتين وواوٌ، فلما كانوا يُسكِّنون مثلَ ذلك مع غير الواو؛ كان السكونُ مع الواو لثُقْلها أولى. ومعنى (خُطُوَات الشَّيطان): طُرُقه. والخَطوة بفتح الخاء الاسمُ، وبضمّها: قدرُ ما بين قدميك[2].

(يَأْتَلِ) وَمَعْنَى تَأْتَلِي تَحْلِفُ وكذلك يَتَأَلَّى: يحلف[3].

التفسير:

نداءٌ من الله الرحمن لعباده أهل الإيمان، ينهاهم عن تتبع خُطوات الشيطان، وهي مسالكُهُ وطرائقه التي يخدعُ بها بني آدم، فيتدرج بهم حتى يهلكوا.

وأخرج الطبري بسنده الحسن عن علي بن أبي طلحة ﷺ عن ابن عباس قوله: (خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ) يقول: عمله. وأخرج الطبري بسنده الصحيح عن مجاهد قال: خطيئته) [4].

قال العلامة القاسمي: (لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ) أي: بإشاعة الفاحشة[5].

---

(١) المرجع السابق ٣٣١/٢.

(٢) الحجة في القراءات السبع لابن خالويه ٩١/١، ٩٢.

(٣) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣٦/٤.

(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري ٣٧/٣.

(٥) محاسن التأويل للقاسمي ٣٤٠/٧.

وفي قوله: (خُطُوَاتِ...) تمثيل مبني على تشبيه حالة محسوسة بحالة معقولة، إذ لا يعرف السامعون للشيطان خطوات حتى يُنهوا عن اتباعها[١].

وقد نهى الله جل وعلا عن اتباع خُطُوات الشيطان في كتابه العزيز في أربعة مواطن:

أولها: قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨ ﴾[٢].

ثانيها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨ ﴾[٣].

ثالثها: ﴿ وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ١٤٢ ﴾[٤]. **وما في هذه السورة رابعها.**

وعداوة الشيطان لابن آدم شديدة ومُبينة، وهذا ثابت في الكتاب والسنة، فإنه لا يفتُرُ في عداوته وكيده ووساوسه منذ ولادته، كما جاء في الحديث، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ "كل بني آدم يطعن الشيطان في جنبيه بإصبعه حين يولد، غير عيسى ابن مريم، ذهب يطعن فطعن في الحجاب"[٥].

وإن الشيطان ليحرص أشد الحرص على إهلاك ابن آدم، وإيقاعه في الكفر والشرك والكبائر والذنوب والغفلة عن الله تعالى وذكْره، وقد قال جل وعلا عنه:

﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ١٧ ﴾[٦].

وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: "إن إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا،

---

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٨٦/١٨.

(٢) سورة البقرة: ١٦٨.

(٣) سورة البقرة: ٢٠٦.

(٤) سورة الأنعام: ١٤٢.

(٥) صحيح البخاري – كتاب بدء الخلق– باب صفة إبليس وجنوده – حديث رقم ٣٢٨٦.

(٦) سورة الأعراف: ١٦، ١٧.

فيقول: ما صنعت شيئا، قال ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته، قال: فيدنيه منه ويقول: نعم أنت" قال الأعمش: أراه قال: "فيلتزمه"(١).

وفي الرواية الأخرى عن أبي موسى الأشعري ﷺ عن النبي ﷺ قال: " إذا أصبح إبليس بث جنوده، فيقول: من أضل اليوم مسلما ألبسته التاج. قال: فيخرج هذا، فيقول: لم أزل به حتى طلق امرأته، فيقول: أوشك أن يتزوج، ويجيء هذا فيقول: لم أزل به حتى عق والديه، فيقول: أوشك أن يَبَرَّ، ويجيء هذا، فيقول: لم أزل به حتى أشرك فيقول: أنت أنت، ويجيء، فيقول: لم أزل به حتى زنى فيقول: أنت أنت، ويجيء هذا، فيقول: لم أزل به حتى قتل فيقول: أنت أنت، ويلبسه التاج"(٢).

وإن أعظم العقبات والمكائد والمداخل للشيطان على ابن آدم ستٌّ:

أولها: إيقاعه في الكفر والشرك بالله عز وجل. ثانيها: فإن نجا؛ فإيقاعه في البدعة. ثالثها: فإن نجا؛ فإيقاعه في كبائر الذنوب والمحرمات، وتهوينها، والتسويف في التوبة منها. رابعها: فإن نجا؛ فإيقاعه في صغائر الذنوب، والإصرار عليها. خامسها: فإن نجا؛ فإشغاله بالمباحات عن المستحبات.

سادسها: فإن نجا؛ فإشغاله بالمفضول عن الفاضل، والمرجوح عن الراجح" (٣).

قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾.

قال الراغب: الفُحْشُ والفَحْشَاءُ والفَاحِشَةُ: ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال(٤)، والفواحش عند العرب كلُّ ما قبُح(٥)، والمنكرُ ما يُنكره الشرع(٦)، ويُنكره أهل الخير(٧) أصحابُ الفطرة السليمة.

---

(١) صحيح مسلم – كتاب صفة القيامة والجنة والنار– باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وأن مع كل إنسان– حديث رقم ٢٨١٣.

(٢) صحيح ابن حبان – كتاب التاريخ– ذكر الإخبار عن وضع إبليس التاج على رأس من كان أعظم – حديث رقم ٦١٨٩– وصححه العلامة الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، حديث رقم ٢٤٤٩.

(٣) باختصار وتصرف، ومن أراد الاستزادة فليرجع إلى: مدارج السالكين للإمام ابن القيم ٢٢٢/١ وما بعدها.

(٤) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ص٦٢٦.

(٥) عمدة الحفاظ للسمين الحلبي ١٩٦٠/٣.

(٦) فتح القدير للشوكاني ٢٠/٤.

(٧) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٨٧/١٨.

والمعنى: ومن يسلك طُرق الشيطان، فإنه يأمره بقبيح الأفعال ومنكراتها[١].

وفي الحديث عن سبرة بن أبي فاكه ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال له: أتسلم وتذر دينك، ودين آبائك، وآباء أبيك؟ " قال: "فعصاه، فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة، فقال: أتهاجر وتذر أرضك، وسماءك، وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطِّوَلِ قال: "فعصاه فهاجر" قال: "ثم قعد له بطريق الجهاد، فقال: هو جهد النفس، والمال، فتقاتل فتقتل، فتنكح المرأة، ويقسم المال" قال: "فعصاه فجاهد" فقال رسول الله ﷺ: "فمن فعل ذلك منهم فمات، كان حقا على الله أن يدخله الجنة، أو قتل كان حقا على الله أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقا على الله أن يدخله الجنة، أو وقصته دابة كان حقا على الله أن يدخله الجنة"[٢].

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.

أي: ولولا فضلُ الله عليكم أيها الناس ورحمته لكم، ما تتطهر منكم من أحد أبدا من دنس ذنوبه وشركه، ولكن الله يُطهّر من يشاء من خلقه[٣].

والله سميع لأقوال عباده عليمٌ بهم، من يستحق منهم الهدى والضلال[٤].

وأخرج الطبري بسنده الحسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله (وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا) يقول: ما اهتدى منكم من الخلائق لشيء من الخير ينفع به نفسه، ولم يتق شيئاً من الشر يدفعه عن نفسه[٥].

قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

---

(١) التفسير الميسر ص٣٥٢.

(٢) مسند أحمد بن حنبل – مسند المكيين– حديث سبرة بن أبي فاكه – حديث رقم ١٥٩٥٨. وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع، حديث رقم ١٥٦٢.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري ٢٢١/١٧.

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٢٤/٤.

(٥) موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور للدكتور حكمت بشير ٤٥٧/٣. وانظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري ٢٢٢/١٧.

سبب نزول الآية:

وهذه الآية نزلت في الصديق ﷺ حين حلف ألا ينفع مسطح بن أثاثة بنافعة أبدا بعدما قال في عائشة ما قال[١]، كما في الصحيح من حديث عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها- قالت: "...فلما أنزل الله هذا في براءتي، قال أبو بكر الصديق ﷺ وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه: والله لا أنفق على مسطح شيئا أبدا بعد ما قال لعائشة، فأنزل الله تعالى: ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا إلى قوله غفور رحيم فقال أبو بكر: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح الذي كان يجري عليه"[٢].

وأخرج الطبري بسنده الحسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله (وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ) يقول: لا تقسموا أن لا تنفعوا أحداً[٣].

ومعنى (يأْتلِ): يحلف، فهو من قولك آليتُ، إذا حلفتَ[٤]. وقال الزجاج: وَمَعْنَى تَأْتَلِي: تَحْلِفُ وكذلك يَتَأَلَّى: يحلف[٥]، ومنه قوله تعالى: (لِّلَّذِينَ مِن نِسَائِهِم)، وقالت فرقة: هو من أَلَوت في كذا: إذا قصّرت، ومنه: لم آلُ جهدا: أي لم أُقصّر، وكذا منه قوله تعالى: (لَا يَأْلُونَكُم خَبَالاً) [٦].

والمعنى: أي: لا يحلفْ أهل الدين والغنى والصدقة على تركِ صلة المساكين من قراباتهم والمهاجرين في سبيل الله الذين تركوا ديارهم وأموالهم من النفقة عليهم بسبب أذاهم، وليعفوا وليصفحوا ويتجاوزوا عن إساءتهم.

ولذا فإن السنة فيمن حلف على يمين، ورأى غيرها خيرا منها فإنه يتحلل منها ويُكفِّر، ويأتِ الذي هو خير.

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٢٥/٤.

(٢) صحيح البخاري - كتاب الشهادات- باب تعديل النساء بعضهن بعضا، حديث رقم ٢٦٦١. وعند الإمام مسلم في صحيحه- كتاب التوبة- باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف، حديث رقم: ٢٧٧٠.

(٣) موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور ٤٥٧/٣.وانظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري ٢٢٥/١٧.

(٤) التسهيل في علوم التنزيل لابن جُزي ٨٦/٢.

(٥) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣٦/٤.

(٦) فتح القدير للشوكاني ٢٣/٤.

فعن أبي بردة عن أبيه، قال: أتيت النبي ﷺ في رهط من الأشعريين أستحمله، فقال: "والله لا أحملكم، وما عندي ما أحملكم عليه" قال: ثم لبثنا ما شاء الله أن نلبث، ثم أتي بثلاث ذود غر الذرى، فحملنا عليها، فلما انطلقنا قلنا، أو قال بعضنا: والله لا يبارك لنا، أتينا النبي ﷺ نستحمله فحلف أن لا يحملنا، ثم حملنا، فارجعوا بنا إلى النبي ﷺ فنذكره، فأتيناه فقال: "ما أنا حملتكم، بل الله حملكم، **وإني والله – إن شاء الله – لا أحلف على يمين، فأرى غيرها خيرا منها، إلا كفرت عن يميني وأتيت الذي هو خير – أو: أتيت الذي هو خير وكفرت عن يميني**"(١).

وعن عائشة –رضي الله عنها–: أن أباها كان لا يحنث في يمين حتى أنزل الله كفارة اليمين، قال أبو بكر ﷺ: "لا أرى يمينا أرى غيرها خيرا منها، إلا قبلتُ رخصة الله وفعلت الذي هو خير"(٢).

قوله تعالى: ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

أي: ألا تحبون أن يستر الله عليكم ذنوبكم بإفضالكم عليهم؛ فيترك عقوبتكم عليها(٣)، فإن الجزاء من جنس العمل، فكما تغفر عن المذنب إليك؛ نغفر لك، وكما تصفحُ نصفح عنك(٤)، والله غفورٌ لذنوب وعيوب عباده، رحيمٌ بهم.

ويستفاد من الآيات:

١- بيان عدواة الشيطان لابن آدم، ووجوب الحذر من مكائده ومصائبه؛ فإن له خطوات ومنازل يخدع بها المؤمن.

٢- مَن تتبّع خطوات الشيطان، وخُدع بوساوسه ونفخه؛ صار من جُنده شيطانا يأمر بالفحشاء والمنكر.

٣- التزكية والتربية من أعظم نعم الله ورحمته وفضله على المؤمنين.

---

(١) صحيح البخاري – كتاب الأيمان والنذور– باب قول الله تعالى: لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم، حديث رقم ٦٦٢٣.

(٢) صحيح البخاري – كتاب تفسير القرآن – سورة البقرة – باب قوله: لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم، حديث رقم ٤٦١٤.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري ٢٢٤/١٧.

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٢٥/٤.

٤- نهي المؤمنين عن الحلف عن عدم فعل البر والطاعات، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾[1]﴾).

٥- استحباب العفو والصفحِ عن الأخيار وأهل السابقة، وإقالة ذوي الهيئات عثراتهم، وأن ذلك سببٌ لمغفرة الله وعفوه، ففي الحديث عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قال النبي ﷺ: "أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم"[2]، وقال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾[3])، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾[4]).

٦- إثبات أسماء "السميع" و"العليم" و"الغفور" و"الرحيم" لله تعالى.

الدرس الخامس

(جزاء القذفَة في الدنيا والآخرة)

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾.

القراءات وتوجيهها:

قال العلامة ابن الجزري: وَاخْتَلَفُوا فِي: (يَوْمَ تَشْهَدُ) فَقَرَأَ حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَخَلَفٌ بِالْيَاءِ عَلَى التَّذْكِيرِ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِالتَّاءِ عَلَى التَّأْنِيثِ[5].

(وَاخْتَلَفُوا) فِي: الضَّمِّ وَالْكَسْرِ مِنْ (بُيُوتٍ)، وَ(الْغُيُوبِ)، وَ(عُيُونٍ)، وَ(شُيُوخًا)، وَ(جُيُوبِ) فَقَرَأَ بِضَمِّ الْبَاءِ مِنْ (الْبُيُوتِ وَبُيُوتٍ) حَيْثُ وَقَعَ أَبُو جَعْفَرٍ، وَالْبَصْرِيَّانِ، وَوَرْشٌ وَحَفْصٌ، وَقَرَأَ بِكَسْرِ الْغَيْنِ مِنَ الْغُيُوبِ، وَذَلِكَ حَيْثُ وَقَعَ: حَمْزَةُ وَأَبُو بَكْرٍ، وَقَرَأَ

---

(١) سورة البقرة: ٢٢٤.

(٢) الأدب المفرد للبخاري - باب الرفق، حديث رقم ٤٦٥. وصححه العلامة الألباني في صحيح الأدب المفرد، حديث رقم ٤٦٥، وفي صحيح الجامع، حديث رقم ١١٨٥.

(٣) سورة الرحمن: ٦٠.

(٤) سورة الشورى: ٤٠.

(٥) معاني القرآن للفراء ٢/٢٤٨.

بِكَسْرِ الْعَيْنِ مِنْ (الْعُيُونِ وَعُيُونٍ) وَالشِّينِ مِنْ شُيُوخًا، وَهُوَ فِي غَافِرٍ وَالْجِيمِ مِنْ جُيُوبِهِنَّ، وَهُوَ فِي سُورَةِ النُّورِ ابْنُ كَثِيرٍ وَحَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَابْنُ ذَكْوَانَ وَأَبُو بَكْرٍ إِلَّا أَنَّهُ اخْتُلِفَ عَنْهُ فِي الْجِيمِ مِنْ جُيُوبِهِنَّ، فَرَوَى شُعَيْبٌ عَنْ يَحْيَى عَنْهُ ضَمَّهَا، وَكَذَلِكَ رَوَى عَنْهُ الْعُلَيْمِيُّ مِنْ طَرِيقِهِ، وَرَوَى أَبُو حَمْدُونَ عَنْ يَحْيَى عَنْهُ كَسْرَهَا[1].

وَاخْتَلَفُوا فِي: (غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ) فَقَرَأَ أَبُو جَعْفَرٍ وَابْنُ عَامِرٍ وَأَبُو بَكْرٍ بِنَصْبِ الرَّاءِ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِالْخَفْضِ،[2].

قال الفراء: (تَشْهَدُ) التاء لتأنيث الألسنة، والياء لتذكير اللسان، ولأن الفعل إذَا تقدم كَانَ كأنه لواحد الجمع[3]. و (جُيُوبِهِنَّ): بضم الجيم وكسرها لُغَاتٌ.

(غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ): يُخفض لأنه نعتٌ للتابعين، وليسوا بموقتين[4]؛ فلذلك صلحت (غير) نعتًا لَهُم؛ وإن كانوا معرفة. والنصبُ جائز قد قرأ بِهِ عَاصِم وغير عَاصِم. ومثله (لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ) والنصب فيهما جَمِيعًا عَلَى القطع؛ لأن (غير) نكرة. وإن شئت جعلته عَلَى الاستثناء فتوضع (إلا) فِي موضع (غير) فيصلح. والوجه الأول أجود[5].

التفسير:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٢٣﴾.

والمحصناتُ في كتاب الله على معانٍ:

الأول: المتزوجات، كما في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ... ﴾ ثم قال تعالى عطفا على المحرمات من النساء: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ فَمَا

(١) النشر في القراءات العشر لابن الجزري ٢/٢٢٦.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/٢٤٨.

(٣) المرجع السابق نفس النقل.

(٤) أي: بمعينين.

(٥) معاني القرآن للفراء ٢/٢٥٠.

ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾[1].

الثاني: الحرائر، كما في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ﴾[2].

الثالث: العفيفات: كما في هذه الآية ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ ﴾.

والمعنى: إن الذين يقذفون بفاحشة الزنا العفيفات الطاهرات الغافلات عن الفواحش ولم تخطر بقلوبهن، المؤمنات بالله ورسوله ﷺ، فإنهم ملعونون مطرودون من رحمة الله في الدنيا والآخرة، ولهم العذاب العظيم في نار جهنم؛ لقولهم العظيم؛ جزاءً وفاقا.

وهل هذا الوعيد العظيم فيمن قذف عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها-، أو أزواج النبي ﷺ، أو هو عام في كل المؤمنات؟ قال الإمام الطبري: وأولى هذه الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال: نزلت هذه الآية في شأن عائشة -رضي الله عنها-، والحكم بها عامٌّ في كل من كان بالصفة التي وصفه الله بها فيها، وإنما قلنا ذلك أولى تأويلاته بالصواب؛ لأن الله عمّ بقوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ﴾ كل محصنة غافلة مؤمنة رماها رامٍ بالفاحشة من غير أن يخص بذلك بعضا دون بعض، فكل رامٍ محصنة بالصفة التي ذكر الله جل ثناؤه في هذه الآية فملعون في الدنيا والآخرة، وله عذاب عظيم، إلا أن يتوب من ذنبه ذلك قبل وفاته[3].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: هذه الآية في أزواج النبي ﷺ خاصة في قول كثير من أهل العلم.

قوله: ﴿ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ لتعريف المعهود والمعهود هنا أزواج النبي ﷺ لأن الكلام في قصة الإفك ووقوع من وقع في أم المؤمنين عائشة أو تقصير اللفظ العام على سببه للدليل الذي يوجب ذلك.

ويؤيد هذا القول أن الله سبحانه رتب هذا الوعيد على قذف محصنات غافلات مؤمنات وقال في أول السورة ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ

---

(١) سورة النساء ٢٣، ٢٤.

(٢) سورة النساء: ٢٥.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري ١٧/٢٣٠.

جَلْدَةً ﴾ فرتب الجلد وردَّ الشهادة والفسقَ على مجرد قذف المحصنات، فلا بد أن تكون المحصنات الغافلات المؤمنات لهن مزية على مجرد المحصنات، وذلك والله أعلم لأن أزواج النبي ﷺ مشهود لهن بالإيمان لأنهن أمهات المؤمنين وهن أزواج نبيه في الدنيا والآخرة وعوام المسلمات إنما يعلم منهن في الغالب ظاهر الإيمان ولأن الله سبحانه قال في قصة عائشة: {وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ} فتخصيصه بتولي كبره دون غيره دليل على اختصاصه بالعذاب العظيم وقال: {وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} فعلم أن العذاب العظيم لا يمس كل من قذف وإنما يمس متولي كبره فقط وقال هنا {وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} فعلم أنه الذي رمى أمهات المؤمنين ويعيب بذلك رسول الله ﷺ وتولى كبر الإفك وهذه صفة المنافق ابن أبي.

وأعلم أنه على هذا القول تكون هذه الآية حجة أيضا موافقة لتلك الآية لأنه لما كان رمي أمهات المؤمنين أذى للنبي ﷺ لعن صاحبه في الدنيا والآخرة ولهذا قال ابن عباس: "ليس فيها توبة" لأن مؤذي النبي ﷺ لا تقبل توبته إذا تاب من القذف حتى يسلم إسلاما جديدا وعلى هذا فرميهن نفاق مبيح للدم إذا قصد به أذى النبي ﷺ أو أذاهن بعد العلم بأنهن أزواجه في الآخرة فإنه ما بغت امرأة نبي قط.

ومما يدل على أن قذفهن أذى للنبي ﷺ ما خرجاه في الصحيحين في حديث الإفك عن عائشة قالت: فقام رسول الله ﷺ فاستعذر من عبد الله بن أبي بن سلول قالت: فقال رسول ﷺ وهو على المنبر "يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرا ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا وما كان يدخل على أهلي إلا معي" فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله إن كان من الأوس ضربنا عنقه وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلا صالحا ولكن احتملته الحمية فقال لسعد بن معاذ: لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين قالت: فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت. وفي رواية أخرى صحيحة قالت: "لما ذكر من شأني الذي ذكر وما علمت به قام رسول الله ﷺ في خطيبا وما علمت به فتشهد وحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: "أما بعد أشيروا

علي في أناس أبنوا أهلي وايم الله ما علمت على أهلي سوءا قط وأبنوهم بمن والله ما علمت عليه من سوء قط ولا دخل بيتي قط إلا وأنا حاضر ولا كنت في سفر إلا غاب معي فقام سعد بن معاذ فقال: يا رسول الله مرني أن أضرب أعناقهم ".

فقوله "من يعذرني" أي: من ينصفني ويقيم عذري إذا انتصفت منه لما بلغني من أذاه في أهل بيتي والله لهم فثبت أنه ﷺ قد تأذى بذلك تأذيا استعذر منه وقال المؤمنون الذين لم تأخذهم حمية: " مرنا نضرب أعناقهم فإنا نعذرك إذا أمرتنا بضرب أعناقهم " ولم ينكر النبي ﷺ على سعد استئماره في ضرب أعناقهم وقوله: " إنك معذور إذا فعلت ذلك ".

بقى أن يقال: فقد كان من أهل الإفك مسطح وحسان وحمنة ولم يرموا بنفاق ولم يقتل النبي ﷺ أحدا بذلك السبب بل قد اختلف في جلدهم.

وجوابه: أن هؤلاء لم يقصدوا أذى النبي ﷺ ولم يظهر منهم دليل على أذاه بخلاف ابن أُبيّ الذي إنما كان قصده أذاه، ولم يكن إذ ذاك قد ثبت عندهم أن أزواجه في الدنيا هُنَّ أزواجٌ له في الآخرة، وكان وقوع ذلك من أزواجه ممكنا في العقل، ولذلك توقف النبي ﷺ في القصة حتى استشار علياً وزيداً، وحتى سأل بريرة، فلم يحكم بنفاق من لم يقصد أذى النبي ﷺ لإمكان أن يطلق المرأة المقذوفة، فأما بعد أن ثبت أنهن أزواجه في الآخرة، وأنهن أمهات المؤمنين؛ فقذْفُهُنَّ أذى له بكل حال، ولا يجوز مع ذلك أن تقع منهن فاحشة؛ لأن في ذلك جواز أن يقيم الرسول مع امرأة بغي وأن تكون أم المؤمنين موسومة بذلك وهذا باطل ولهذا قال سبحانه: ﴿ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١).

ولا خلاف بين الأمة أن هذه الآيات كلها من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾، نزلت في أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-، فمن ذكرها بالفاحشة بعد نزول هذه الآيات وهو عالم بنزولها، فهو كافر يُستتاب؛ لأنه رادّ على الله قوله في براءتها، ومكذب بما أنزله من وحيه فيها، فإن تاب وإلا قُتل، ومن

(١) الصارم المسلول على شاتم الرسول ص٤٤: ٤٩.

جهل نزول الآيات، تُليتْ عليه، وعُرّف بما فيها، فإن آمن بها وقبلها جُلِدَ حدَّ المفتري وتُركَ، فإن عاد بعدما عرف مرة أخرى استتيب كالأول(١).

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

هذه الجملة مُقررة لما قبلها مبينة لوقت حلول ذلك العذاب بهم، وتعيينُ اليوم لزيادة التهويل بما فيه من العذاب الذي لا يُحيط به وصفٌ(٢).

والمعنى: أن ذلك العذاب العظيم في اليوم الآخر الذي فيه تشهدُ عليهم جوارحهم بما كانوا يعملون.

كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾(٣).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: "هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة، ليست في سحابة؟ "قالوا: لا، قال: "فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر، ليس في سحابة؟ قالوا: لا، قال: "فوالذي نفسي بيده لا تضارون في رؤية ربكم، إلا كما تضارون في رؤية أحدهما، قال: فيلقى العبد، فيقول: أي فل ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى، قال: فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا، فيقول: فإني أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثاني فيقول: أي فل ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس، وتربع، فيقول: بلى، أي رب فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا، فيقول: فإني أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثالث، فيقول له مثل ذلك، فيقول: يا رب آمنت بك، وبكتابك، وبرسلك، وصليت، وصمت، وتصدقت، ويثني بخير ما استطاع، فيقول: هاهنا إذا، قال: ثم يقال له: الآن نبعث شاهدنا عليك، ويتفكر في نفسه:

---

(١) نُكت القرآن الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام للإمام محمد بن علي الكرجي القصّاب ٤٤٢/٢.

(٢) فتح القدير للشوكاني ٢٤/٢.

(٣) سورة فصلت: ١٩: ٢٣.

من ذا الذي يشهد علي؟ فيختم على فيه، ويقال لفخذه ولحمه وعظامه: انطقي، فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله، وذلك ليعذر من نفسه، وذلك المنافق وذلك الذي يسخط الله عليه "(١).

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾.

أخرج الطبري بسنده الحسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله (يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق) يقول: حسابهم(٢).

والمعنى: يوم القيامة يومئذ تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون؛ في هذا اليوم العظيم يوفيهم الله تعالى جزاء أعمالهم المستحق بالعدل، فهو الحق المبين.

وَالْمُرَادُ بِالدِّينِ هُنَا الْجَزَاءُ، أَيْ: وَإِنَّ الْجَزَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَوَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: (يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ)، أَيْ: جَزَاءَهُمْ بِالْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: (وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى) (٣).

قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾، أي: ويعلمون في ذلك الموقف العظيم أن الله هو الحق المبين، الذي هو حق، ووعده حق، ووعيده حق، وكلُّ شيء منه حقٌّ، الذي لا يَظلمُ أحداً مثقالَ ذرة(٤).

قال البيضاوي: "وَيَعْلَمُونَ لمعاينتهم الأمر أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ، الثابت بذاته، الظاهر ألوهيته، لا يشاركه في ذلك غيره، ولا يقدر على الثواب والعقاب سواه"(٥).

والحقُّ من أسماء الله تبارك وتعالى، قال جلّ وعلا: ﴿ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾، وقال جل وعلا: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ وقال تعالى: ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾.

وكان ﷺ يقول: "ولك الحمد أنت الحق في دعائه الطويل عند الاستفتاح في قيام الليل.

---

(١) صحيح مسلم – كتاب الزهد والرقائق، حديث رقم ٢٩٦٨.

(٢) موسوعة الصحيح المسبور للدكتور حكمت بشير ٤٥٩/٣. وانظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري ٢٣١/١٧.

(٣) أضواء البيان للعلامة الشنقيطي ٤٣٦/٧.

(٤) التفسير الميسر ص٣٥٢. وانظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير بتصرف ٥٢٨/٤.

(٥) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ١٠٣/٤.

فعن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال: " اللهم لك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد لك ملك السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت ملك السموات والأرض، ولك الحمد أنت الحق ووعدك الحق، ولقاؤك حق، وقولك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد ﷺ حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم، وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت – أو: لا إله غيرك – "(١).

قوله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾.

"بَعْدَ أَنْ بَرَّأَ اللَّهُ عَائِشَةَ –رضي الله عنها– مِمَّا قَالَ عُصْبَةُ الْإِفْكِ فَفَضَحَهُمْ بِأَنَّهُم مَا جاؤوا إِلَّا بسيء الظَّنِّ وَاخْتِلَاقِ الْقَذْفِ وَتَوَعَّدَهُمْ وَهَدَّدَهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَى الَّذِينَ تَابُوا أَنْحَى عَلَيْهِمْ ثَانِيَةً بِبَرَاءَةِ رَسُولِ الله ﷺ مِنْ أَنْ تَكُونَ لَهُ أَزْوَاجٌ خَبِيثَاتٌ لِأَنَّ عِصْمَتَهُ وَكَرَامَتَهُ عَلَى اللَّهِ يَأْبَى اللَّهُ مَعَهَا أَنْ تَكُونَ أَزْوَاجُهُ غَيْرَ طَيِّبَاتٍ. فمكانة الرَّسُولِ ﷺ كَافِيَةٌ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى بَرَاءَةِ زَوْجِهِ وَطَهَارَةِ أَزْوَاجِهِ كُلِّهِنَّ. وَهَذَا مِنَ الِاسْتِدْلَالِ عَلَى حَالِ الشَّيْءِ بِحَالِ مُقَارِنِهِ وَمُمَاثِلِهِ، وَفِي هَذَا تَعْرِيضٌ بِالَّذِينِ اخْتَلَقُوا الْإِفْكَ بِأَنَّ مَا أَفَكُوهُ لَا يَلِيقُ مِثْلُهُ إِلَّا بِأَزْوَاجِهِمْ (٢).

قال ابن عباس : الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من القول، والطيبات من القول للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من القول. قال: ونزلت في عائشة وأهل الإفك"(٣).

وأخرج الطبري بسنده الصحيح عن مجاهد: الخبيثات من الكلام للخبيثين من الناس، والطيبات من الكلام للطيبين من الناس، وأخرجه بسند صحيح عن الضحاك وقتادة(٤).

---

(١) صحيح البخاري – كتاب الجمعة– أبواب تقصير الصلاة – باب التهجد بالليل، حديث رقم ١١٢٠.

(٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٩٤/١٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٢٨/٤.

(٤) موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور ٤٥٩/٣. وانظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري ٢٣٣/١٧.

والمعنى: أن الخبيث من القول لا يليق إلا بالخبيث من الناس، والطيب لا يليق إلا بالطيب، فعائشة –رضي الله عنها– لا تليق بها الخبيثات من القول؛ لأنها طيبةٌ، فتضاف إليها طيبات الكلام من المدح والثناء الحسن، وما يليق بها[1].

قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾.

أخرج الطبري بسنده الصحيح عن مجاهد (أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ)، فمن كان طيباً فهو مبرأ من كل قول خبيث يقول يغفره الله، ومن كان خبيثاً فهو مبرأ من كل قول صالح فإنه يرده الله إليه لا يقبله منه[2].

أي: ما كان الله ليجعل عائشة –رضي الله عنها– زوجة لرسول الله ﷺ إلا وهي طيبة؛ لأنه أطيب من كل طيب من البشر، ولو كانت خبيثة لما صلحت له، لا شرعا ولا قدرا، ولهذا قال تعالى: (أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ) أي: هم بُعداء عما يقوله أهل الإفك والعدوان"[3].

قوله تعالى: ﴿ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾.

أخرج الطبري بسنده الصحيح عن قتادة (لهم مغفرة ورزق كريم) مغفرة لذنوبهم، ورزق كريم في الجنة. والرزق الكريم هو الجنة" [4].

ويستفاد من الآيات:

١- بيانُ عِظَم جريمة قذف المحصنات الغافلات المؤمنات، وأنه من الموبقات السبع، وأنه سببٌ للعنة الله تعالى في الدنيا والآخرة.

٢- عِظَمُ يومِ الجزاء، وأن الله تعالى يستنطق فيه الجوارح، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ١٩ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٠ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ

---

(١) معالم التنزيل للإمام البغوي ٢٨٤/٣.

(٢) موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور ٤٥٩/٣. وانظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري ٢٣٣/١٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٢٨/٤.

(٤) موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور للدكتور حكمت بشير ٤٥٩/٣.

تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

٣- تقرير معنى كلمة التوحيد (لا إله إلا الله)، أي لا معبود بحق إلا الله، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴾، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ ﴾، وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ ﴾.

٤- مناسبة الخُبْث من الأقوال والأفعال لأهله، ومناسبة الطيبات من الأقوال والأفعال لأهلها.

٥- براءةُ عِرض النبي ﷺ، وزوجه أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- وصفوانُ ﷺ من كل سوء.

٦- تبشير أُمِّ المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-وصفوان ﷺ بالمغفرة والجنة(١).

٧- إثبات اسمي "الحق" و"المبين" لله تعالى.

الدرس السادس

(آداب الاستئذان ودخول البيوت)

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ﴾.

نداء من الله الرحمن لعباده أهل الإيمان، الذين آمنوا بالله تعالى ورسوله ﷺ وما جاء عنهما، يؤدبهم فيه بألا يدخلوا بيوتا غير بيوتهم حتى يستأذنوا أهلها قبل الدخول، ويُسلموا السلام الشرعي، بقول: السلام عليكم ورحمة الله.

(١) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير لأبي بكر الجزائري ٢٣١/٣ بتصرف.

قال الزجاج: فمعنى حتى تَسْتَأنِسُوا حتى تستعلمُوا؛ أيريد أهلها أن يُدخلوا أَمْ لاَ، والدليل على أَنه الإِذْنُ قَوله: (فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فلا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤذَنَ لَكُمْ)[1].

قال الإمام الطبري: إن الاستئناس: الاستفعال من الأنس، وهو أن يستأذن أهل البيت في الدخول عليهم مُخبرا بذلك من فيه، وهل فيه أحد، وليؤذنهم أنه داخل عليهم، فيأنسَ إلى إذنهم له في ذلك، ويأنسوا إلى استئذانه إياهم"[2].

وأخرج عبد الرزاق بسنده الصحيح عن قتادة (حتى تستأنسوا) قال: حتى تستأذنوا وتسلموا[3].

وفي الصحيح عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: "خلق الله آدم على صورته، طوله ستون ذراعا، فلما خلقه قال: اذهب فسلم على أولئك، النفر من الملائكة، جلوس، فاستمع ما يحيونك، فإنها تحيتك وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه: ورحمة الله، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقص بعد حتى الآن"[4].

وعن ربعي ﷺ قال: حدثنا رجل من بني عامر أنه استأذن على النبي ﷺ وهو في بيت فقال: ألجُ؟ فقال النبي ﷺ لخادمه: "اخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان، فقل له: قل السلام عليكم، أأدخل؟ فسمعه الرجل، فقال: السلام عليكم، أأدخل؟ فأذن له النبي ﷺ فدخل"[5].

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: كنت في مجلس من مجالس الأنصار، إذ جاء أبو موسى كأنه مذعور، فقال: استأذنت على عمر ثلاثا، فلم يؤذن لي فرجعت، فقال: ما منعك؟ قلت: استأذنت ثلاثا فلم يؤذن لي فرجعت، وقال رسول الله ﷺ: "إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع" فقال: والله لتقيمن عليه ببينة، أمنكم أحد سمعه من

---

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣٩/٤.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري ٢٤٥/١٧.

(٣) موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور للدكتور حكمت بشير ٤٦١/٣.

(٤) صحيح البخاري – كتاب الاستئذان– باب بدء السلام – حديث رقم ٦٢٢٧.

(٥) سنن أبي داود – كتاب الأدب– أبواب النوم – باب كيف الاستئذان– حديث رقم ٥١٧٧. وصححه العلامة الألباني في صحيح سنن أبي داود، حديث رقم ٥١٧٧.

النبي ﷺ؟ فقال أبي بن كعب: والله لا يقوم معك إلا أصغر القوم، فكنت أصغر القوم فقمت معه، فأخبرت عمر أن النبي ﷺ قال ذلك [١].

وعن أنس ﷺ أو غيره، أن رسول الله ﷺ استأذن على سعد بن عبادة ﷺ فقال: "السلام عليكم ورحمة الله"، فقال سعد: وعليك السلام ورحمة الله، ولم يسمع النبي ﷺ حتى سلم ثلاثا، ورد عليه سعد ثلاثا، ولم يسمعه فرجع النبي ﷺ واتبعه سعد، فقال: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، ما سلمتَ تسليمة إلا هي بأذني، ولقد رددت عليك ولم أسمعك، أحببت أن أستكثر من سلامك ومن البركة، ثم أدخله البيت فقرب له زبيبا، فأكل نبي الله ﷺ، فلما فرغ قال: "أكل طعامكم الأبرار، وصلت عليكم الملائكة، وأفطر عندكم الصائمون"[٢].

وإذا سُئل الطارق عن اسمه لا يقول "أنا" بل يُخبر باسمه، فعن جابر بن عبد الله يقول: أتيت النبي ﷺ في دين كان على أبي، فدققت الباب، فقال: من ذا؟ فقلت: أنا، فقال: أنا أنا، كأنه كرهها"[٣].

وأدب رسول الله ﷺ أصحابه بألا يستقبلوا الباب إذا استأذنوا، لئلا يطلعوا على عورات البيوت.

فعن طلحة عن هزيل قال: جاء رجل – قال عثمان –: سعد، فوقف على باب النبي ﷺ يستأذن، فقام على الباب – قال عثمان: مستقبل الباب – فقال له النبي ﷺ: "هكذا – عنك – أو هكذا، فإنما الاستئذان من النظر"[٤].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال أبو القاسم ﷺ: "لو أن امرأ اطلع عليك بغير إذن فخذفته بحصاة ففقأت عينه، لم يكن عليك جناح"[٥].

---

(١) صحيح البخاري – كتاب الاستئذان– باب التسليم والاستئذان ثلاثا – حديث رقم ٦٢٤٥.

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل – ومن مسند بني هاشم– مسند أنس بن مالك ﷺ، حديث رقم ١٢٤٠٦. وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع، حديث رقم ١٢٢٦.

(٣) صحيح البخاري – كتاب الاستئذان– باب إذا قال: من ذا؟ فقال: أنا، حديث رقم ٦٢٥٠.

(٤) سنن أبي داود – كتاب الأدب– أبواب النوم – باب في الاستئذان، حديث رقم ٥١٧٤. وصححه العلامة الألباني في صحيح سنن أبي داود، حديث رقم ٥١٧٤.

(٥) صحيح البخاري – كتاب الديات– باب من اطلع في بيت قوم ففقئوا عينه – حديث رقم ٦٩٠٢.

وعن أنس بن مالك ﷺ أن رجلا اطلع من بعض حجر النبي ﷺ، " فقام إليه النبي ﷺ بمشقص، أو: بمشاقص، فكأني أنظر إليه يختل الرجل ليطعنه"(١).

وعن سهل بن سعد ﷺ قال: اطلع رجل من جحر في حجر النبي ﷺ ومع النبي ﷺ مدرى يحك به رأسه، فقال: "لو أعلم أنك تنظر، لطعنت به في عينك، إنما جعل الاستئذان من أجل البصر"(٢).

وقد أدب رسول الله ﷺ أصحابه بألا يتعجلوا في دخول بيوتهم إذا رجعوا من سفر، حتى تستعد نساؤهم، ويعلموا بهم.

فعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: كنا مع النبي ﷺ في غزوة، فلما قفلنا، كنا قريبا من المدينة، تعجلت على بعير لي قطوف، فلحقني راكب من خلفي، فنخس بعيري بعنزة كانت معه، فسار بعيري كأحسن ما أنت راء من الإبل، فالتفت فإذا أنا برسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، إني حديث عهد بعرس، قال: أتزوجت؟ قلت: نعم، قال: أبكرا أم ثيبا؟ قال: قلت: بل ثيبا، قال: "فهلا بكرا تلاعبها وتلاعبك" قال: فلما قدمنا ذهبنا لندخل، فقال: "أمهلوا، حتى تدخلوا ليلا – أي عشاء – لكي تمتشط الشعثة، وتستحد المغيبة"(٣).

وعن جابر ﷺ قال: نهى رسول الله ﷺ أن يطرق الرجل أهله ليلا يتخونهم، أو يلتمس عثراتهم"(٤).

وأخرج الطبري بسند صحيح عن عطاء قال: قال ابن عباس: ثلاث آيات جَحَدَهُنَّ الناس: الإذنُ كله، وقال: "إن أكرمكم عند الله أتقاكم" وقال الناس أكرمكم: أعظمكم بيتا [أوشأناً] وقال عطاء: نسيت الثالثة"(٥).

وعن قتادة: "حتى تستأنسوا" قال: "هو الاستئذان ثلاثا من لم يؤذن له فليرجع، أما الأولى فيسمع الحي، وأما الثانية: فيأخذوا حذرهم، وأما الثالثة: فإن شاؤوا أذنوا وإن

(١) صحيح البخاري – كتاب الاستئذان– باب الاستئذان من أجل البصر – حديث رقم ٦٢٤٢.
(٢) صحيح البخاري – كتاب الاستئذان – باب الاستئذان من أجل البصر – حديث رقم ٦٢٤١.
(٣) صحيح البخاري – كتاب النكاح– باب تستحد المغيبة وتمتشط الشعثة – حديث رقم ٥٢٤٧.
(٤) صحيح مسلم – كتاب الإمارة– باب كراهة الطروق– حديث رقم ٧١٥.
(٥) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري ٢٤٤/١٧، ٣٨٧/٢١.

شاؤوا ردوا، ولا تقعدوا على باب قوم ردوكم عن بابهم، فإن للناس حاجات ولهم أشغالا والله أولى بالعذر"[1].

قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾.

أي: اتّباعكم أدب الاستئذان والسلام على البيوت قبل دخولها، وهذه المواعظ والآداب خيرٌ للمستأذنِ ولأهل البيت، ولتتذكروا أمرَ الله جل وعلا فتطيعوه، فإنه خير لكم في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾.

أي: فإن لم تجدوا في البيوت التي لغيركم أحدا ممن يُستأذن عليه، فلا تدخلوها حتى يُؤذن لكم بدخولها من جهة من يملك الإذن[2].

قوله تعالى: ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾.

إي: إن قال لكم أهل البيت ارجعوا فارجعوا، ولا تُعاودوهم بالاستئذان مرة أخرى، ولا تنتظروا بعد ذلك أن يأذنوا لكم، بعد أمرهم لكم بالرجوع، ثم بين سبحانه أن الرجوع من الإلحاحِ وتكرار الاستئذن، والقعود على الباب، فقال (هُو أَزْكَى لَكُم) أي: أفضلُ وأطهر من التدنس بالمشاحّة على الدخول، لما في ذلك من سلامة الصدر، والبعد من الريبة والفرار من الدناءة[3].

قال سعيد بن جبير: ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾: لا تقفوا على أبواب الناس[4].

قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾.

أي: والله عليمٌ بكل أعمالكم، لا يخفى عليه شيء منها.

قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٢٥٦٦/٨، حديث رقم ١٤٣٤٧.

(٢) فتح القدير للشوكاني ٢٨/٤.

(٣) المرجع السابق نفس النقل.

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٣٤/٤.

هذه الآية الكريمة أخصُّ من التي قبلها، وذلك أنها تقتضي جواز الدخول إلى البيوت التي ليس فيها أحدٌ -إذا كان له متاع فيها- بغير إذن كالبيت المعدِّ للضيف، إذا أُذن له فيه أول مرة كفى(١).

قال البيضاوي: "فِيها مَتاعٌ: استمتاع لَكُمْ كالاستكنان من الحر والبرد وإيواء الأمتعة والجلوس للمعاملة، وذلك استثناء من الحكم السابق لشموله البيوت المسكونة وغيرها"(٢).

وأخرج الطبري بسنده الصحيح عن مجاهد في قوله: (بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ) قال: هي البيوت التي ينزلها السَّفْرُ، لا يسكنها أحد" (٣).

قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

وعيدٌ لمن دخل مدخلاً لفساد أو تطلع على عورات(٤).

ويستفاد من الآيات:

١- تأديبُ الله تعالى عباده المؤمنين بإيجاب الاستئذان عند دخول البيوت المسكونة غير بيوتهم.

٢- جوازُ دخولِ البيوت والأماكن غير المسكونة للحاجة.

٣- حُرمة دخول البيوت المسكونة بغير إذن أهلها.

٤- وجوبُ رجوع المستأذن إن لم يُؤذن له.

٥- العملُ بالآداب - التي علمها الله ﷻ عباده المؤمنين- سببٌ للنجاح والفلاح، قال تعالى: ﴿هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ﴾.

٦- الاستئذان الشرعي بقول: "السلام عليكم أأدخل" سببٌ للأنس والخير، والإسلام دين السلام، والله جل وعلا هو السلامُ، والجنةُ دار السلام، وتحية أهلها السلام.

---

(١) المرجع السابق نفس النقل.

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ١٠٤/٤.

(٣) موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور للدكتور حكمت بشير ٤٦١/٣. وانظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري ٢٤٩/١٧.

(٤)أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ١٠٤/٤.

فعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم"(١).

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: إن السلام اسم من أسماء الله، وضعه الله في الأرض، فأفشوه بينكم، إن الرجل إذا سلم على القوم فردوا عليه كانت له عليهم فضل درجة، لأنه ذكرهم السلام، وإن لم يُردّ عليه رد عليه من هو خير منه وأطيبُ"(٢).

الدرس السابع

(غض البصر وحفظ الفرج)

قال الله تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾.

القراءات وتوجيهها:

قال العلامة ابن الجزري: وَأَمَّا مَا حُذِفَ مِنَ الْأَلِفَاتِ لِسَاكِنٍ فَهُوَ مِنَ الْمُخْتَلَفِ فِيهِ كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ، وَهِيَ (أَيُّه) وَقَعَتْ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ: (أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ) فِي النُّورِ وَ (يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ) فِي الزُّخْرُفِ وَ (أَيُّهَ الثَّقَلَانِ) فِي الرَّحْمَنِ، فَوَقَفَ عَلَيْهِ بِالْأَلِفِ فِي الْمَوَاضِعِ الثَّلَاثِ عَلَى الْأَصْلِ خِلَافًا لِلرَّسْمِ أَبُو عَمْرٍو، وَالْكِسَائِيُّ وَيَعْقُوبُ، وَوَقَفَ عَلَيْهَا الْبَاقُونَ بِالْحَذْفِ اتِّبَاعًا لِلرَّسْمِ، إِلَّا أَنَّ ابْنَ عَامِرٍ ضَمَّ الْهَاءَ عَلَى الِاتِّبَاعِ لِضَمِّ الْيَاءِ قَبْلَهَا(٣).

التفسير:

قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ ﴾.

---

(١) صحيح مسلم – كتاب الإيمان باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، حديث رقم٥٤.

(٢) الأدب المفرد للبخاري – باب من لم يرد السلام – حديث رقم ١٠٣٩. وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع، حديث رقم ١٠٣٩.

(٣) النشر في القراءات العشر لابن الجزري ١٤١/٢، ١٤٢.

خطابٌ من اللهِ جلَّ وعلا لخليله محمد ﷺ يأمره بأن يعظ المؤمنين بالله تعالى وبرسوله ﷺ وما جاء عنهما أن يغضّوا من أبصارهم عمّا حرّم الله عليهم من النساء والعورات، وأن يحفظوا فروجهم عما حرّم الله من الفواحشِ وكشف العورات، فإن ذلك أطهرُ لهم وأفضلُ في الدنيا والآخرة، فمن غضّ بصرَه عن الحرام حريٌّ به أن يحفظ فرجه، ومن أطلق بصره خيف عليه أن يقع في الفواحش.

قال الإمام ابن باز: "ومعلوم أن حفظ الفرج من الفاحشة إنما يكون باجتناب وسائلها"(١).

وإن اتفقَ أن وقع بصر المؤمن على مُحرّم من غير قصد، فإنه يصرفُ بصره عنه سريعا، ولا إثم عليه.

فعن جرير بن عبد الله ﷺ قال: "سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجاءة فأمرني أن أصرف بصري"(٢).

وعن ابن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تتبع النظرة النظرة؛ فإنما لك الأولى وليست لك الآخرة"(٣).

و﴿ مِنْ﴾ في الآية الكريمة للتبعيض قال العلامة الماوردي إنها: "مستعملة في المظهر، لأن غض البصر عن الحلال لا يلزم وإنما يلزم غضها عن الحرام؛ فلذلك دخل حرف التبعيض في غض الأبصار فقال: ﴿مِنْ أَبْصَارِهِم ﴾، قاله ابن شجرة. ويحرم من النظر ما قصد، ولا تحرم النظرة الأولى الواقعة سهوا"(٤) وقد ذُكرَ.

قال العلامة الثعالبي: "أظهرُ مَا فى ﴿مِنْ﴾ أن تكون للتبعيض لأن أول نظرة لا يملكها الإنسان وإنما يغض فيما بعد ذلك فقد وقع التبعيض بخلاف الفروج، إذ حفظها عام لها، والبصر هو الباب الأكبر إلى القلب، وبحسب ذلك كثُر السُّقوطُ مِن جهته، ووجب التحذير منه"(٥).

---

(١) مجموع فتاوى ابن باز ٤٢١/١.

(٢) صحيح مسلم – كتاب الآداب– باب نظر الفجاءة–حديث رقم ٢١٥٩.

(٣) مسند أحمد بن حنبل – مسند الأنصار– حديث بريدة الأسلمي – ٢٢٩٧٤، وحسنه العلامة الألباني في صحيح الجامع، حديث رقم ٧٩٥٣.

(٤) النكت والعيون للماوردي ٨٩/٤.

(٥) الجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي ١٨٢/٤.

وقد تزني الجوارح، ولذا بوب الإمام البخاري في صحيحه (باب زنا الجوارح دون الفرج)، وأورد الحديث عن ابن عباس قال: لم أر شيئا أشبه باللمم من قول أبي هريرة قال: ما رأيت شيئا أشبه باللمم مما قال أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ: "إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان المنطق، والنفس تمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك كله ويكذبه"(١).

وغضُّ البصر وحفظه عما حرّم اللهُ سبب عظيم لحفظ الفرج، قال الله جل وعلا ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ ﴾(٢).

وقال جلّ وعلا: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ۝٢٣ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝٢٥ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٢٦ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٢٧ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ۝٢٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٢٩ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٣٠ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٣١ ﴾(٣).

ومن حفظ الفرج سَترُه عن غير الزوجة وملك اليمين، فعن بَهْزِ بنِ حكيم عن أبيه عن جده قال: قلت يا رسول الله: عوراتنا ما نأتي منها وما نذر؟ قال: "احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك" قال: قلت: يا رسول الله، إذا كان القوم بعضهم في بعض؟ قال: "إن استطعت أن لا يرينها أحد فلا يرينها" قال: قلت: يا رسول الله إذا كان أحدنا خاليا؟ قال: "الله أحق أن يُستحيا منه من الناس"(٤).

---

(١) صحيح البخاري – كتاب الاستئذان– باب زنا الجوارح دون الفرج – حديث رقم ٦٢٤٣.

(٢) سورة المؤمنون ١: ٧.

(٣) سورة المعارج ١٩: ٣١.

(٤) سنن أبي داود – كتاب الحمام– باب ما جاء في التعري – حديث رقم ٤٠١٧. وحسنه العلامة الألباني في صحيح سنن أبي داود، حديث رقم ٤٠١٦.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٣٠ ﴾.

"أخبر أنه خَبِيرٌ بأفعالهم وأحوالهم، وكيف يجيلون أبصارهم؟ وكيف يصنعون بسائر حواسهم وجوارحهم؟ فعليهم – إِذْ عرفوا ذلك – أن يكونوا منه على تقوى وحذر في كل حركة وسكون"(١).

قوله تعالى: ﴿ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾.

هذا "أمر من الله تعالى للنساء المؤمنات وغَيْرَةٌ منه لأزواجهن عبادِهِ المؤمنين، وتمييز لهن عن صفة نساء الجاهلية، وفِعال المشركات"(٢).

والمعنى: وقل كذلكَ للمؤمنات أن يغضضن من أبصارهن عما حرّم الله عليهنَّ من النظر إلى غير أزواجهنَّ، أو ما لا يحل من العورات، وأن يحفظن فروجهنَّ عن الفواحشِ.

والغض: الخفضُ والكفُّ... "(٣)، قال عنترة:

وأَغُضُّ طرفي ما بدَتْ لي جارَتي حتى يُواري جارتي مأْواها(٤).

فلا يحلُّ للمؤمنة أن تنظر للرجال نظر شهوة، فإن كان مما جرت به العادةُ ومن غير شهوة فلا حرج.

فعن عروة ﷺ عن عائشة –رضي الله عنها–: دخل علي رسول الله ﷺ وعندي جاريتان تغنيان بغناء بعاث، فاضطجع على الفراش وحوّل وجهه، فدخل أبو بكر، فانتهرني وقال: مزمارة الشيطان عند رسول الله ﷺ، فأقبل عليه رسول الله ﷺ، فقال: "دعهما"، فلما غفل غمزتهما، فخرجتا، قالت: وكان يوم عيد يلعب السودان بالدرق والحراب، فإما سألت رسول الله ﷺ، وإما قال: "تشتهين تنظرين"، فقالت: نعم، فأقامني وراءه، خدي على خده، ويقول: "دونكم بني أرفِدة"، حتى إذا مللتُ، قال: "حسبك"، قلت: نعم، قال: "فاذهبي"(٥).

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري ٢٣٤/٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٣٧/٤.

(٣) مختار الصحاح ص٤٨٨.

(٤) ديوان عنترة بن شداد ٢٢٦/١. بدون بيانات.

(٥) صحيح البخاري – كتاب الجهاد والسير– باب الدرق– حديث رقم ٢٩٠٦.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾.

وقد تنازع أهل العلم في المستثنى، فقال جمهور الأئمة من السلف والخلف: المستثنى: الوجه والكفان. وقالت طائفة من السلف والخلف: المستثنى: الزينةُ الظاهرة كالرداء والثياب؛ مع إباحة لبس النّقاب الذي يُظهر العينين، أو عينا واحدة من خلال الجلباب، وعليه العمل عندنا.

قال الإمام ابن كثير: "أي لا يُظهرن شيئاً من الزينة للأجانب؛ إلا ما لا يمكن إخفاؤه. قال ابن مسعود: كالرداء والثياب، يعني: على ما كان يتعاطاه نساء العرب من المقنعة التي تجلل ثيابها وما يبدو من أسافل الثياب. فلا حرج عليها فيه؛ لأن هذا لا يمكنها إخفاؤه ونظيره في زي النساء ما يظهر من إزارها وما لا يمكن إخفاؤه. وقال بقول ابن مسعود الحسن وابن سيرين وأبو الجوزاء وإبراهيم النخعي وغيرهم. وقال الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾[1] قال: وجهها وكفيها والخاتم. وروي عن ابن عمر وعطاء وعكرمة وسعيد بن جبير وأبي الشعثاء والضحاك وإبراهيم النخعي وغيرهم نحو ذلك... ثم قال: ويحتمل أن ابن عباس ومن تابعه أرادوا تفسير ما ظهر منها بالوجه والكفين. وهذا هو المشهور عند الجمهور"[2].

وقال الإمام ابن مُفلح الحنبلي: "هَلْ يَسُوغُ الْإِنْكَارُ عَلَى النِّسَاءِ الْأَجَانِبِ إذَا كَشَفْنَ وُجُوهَهُنَّ فِي الطَّرِيقِ؟ يَنْبَنِي عَلَى أَنَّ الْمَرْأَةَ: هَلْ يَجِبُ عَلَيْهَا سَتْرُ وَجْهِهَا؟ أَوْ يَجِبُ غَضُّ الْبَصَرِ عَنْهَا؟ أَوْ فِي الْمَسْأَلَةِ قَوْلَانِ"؟... ثم قال: فَأَمَّا عَلَى قَوْلِنَا وَقَوْلِ جَمَاعَةٍ مِنْ الشَّافِعِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ؛ أَنَّ النَّظَرَ إلَى الْأَجْنَبِيَّةِ جَائِزٌ مِنْ غَيْرِ شَهْوَةٍ وَلَا خَلْوَةٍ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَسُوغَ الْإِنْكَارُ"[3].

وقال الإمام الطبري بعد أن ذكر نزاع السلف في هذه المسألة: "وَأَوْلَى الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ: قَوْلُ مَنْ قَالَ: عُنِيَ بِذَلِكَ الْوَجْهُ وَالْكَفَّانِ، يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ إِذَا كَانَ كَذَلِكَ الْكُحْلُ، وَالْخَاتَمُ، وَالسِّوَارُ، وَالْخِضَابُ، وَإِنَّمَا قُلْنَا ذَلِكَ أَوْلَى الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ بِالتَّأْوِيلِ، لِإِجْمَاعِ الْجَمِيعِ عَلَى أَنَّ عَلَى كُلِّ مُصَلٍّ أَنْ يَسْتُرَ عَوْرَتَهُ فِي صَلَاتِهِ، وَأَنَّ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَكْشِفَ وَجْهَهَا وَكَفَّيْهَا فِي صَلَاتِهَا، وَأَنَّ عَلَيْهَا أَنْ تُسْتِرَ مَا عَدَا ذَلِكَ مِنْ بَدَنِهَا إِلَّا مَا رُوِيَ عَنْ

(١) سورة النور: ٣١.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٢٧/٥.

(٣) الآداب الشرعية لعبد الله بن مفلح المقدسي ١٨٧/١.

النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ أَبَاحَ لَهَا أَنْ تُبْدِيَهُ مِنْ ذِرَاعِهَا إِلَى قَدْرِ النِّصْفِ فَإِذْ كَانَ ذَلِكَ مِنْ جَمِيعِهِمْ إِجْمَاعًا، كَانَ مَعْلُومًا بِذَلِكَ أَنَّ لَهَا أَنْ تُبْدِيَ مِنْ بَدَنِهَا مَا لَمْ يَكُنْ عَوْرَةً كَمَا ذَلِكَ لِلرِّجَالِ؛ لِأَنَّ مَا لَمْ يَكُنْ عَوْرَةً فَغَيْرُ حَرَامٍ إِظْهَارُهُ. وَإِذَا كَانَ لَهَا إِظْهَارُ ذَلِكَ، كَانَ مَعْلُومًا أَنَّهُ مِمَّا اسْتَثْنَاهُ اللَّهُ تَعَالَى ذِكْرُهُ بِقَوْلِهِ: ﴿ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ [النور: ٣١] لِأَنَّ كُلَّ ذَلِكَ ظَاهِرٌ مِنْهَا"(١).

وقد ألّف العلامة الألباني كتابًا انتصر فيه لهذا المذهب، سمّاه "جلباب المرأة المسلمة في الكتاب والسنة".

قال شيخنا الأستاذ الدكتور/ حكمت بشير –حفظه الله–: أخرج الطبري بسنده الحسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: (ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها) قال: والزينة الظاهرة: الوجه، وكحل العين، وخضاب الكف، والخاتم، فهذه تظهر في بيتها لمن دخل من الناس عليها.ا.هـ. هكذا تمام كلام ابن عباس ولكن كثيراً من العلماء ينقلون عنه الشق الأول، فما نسب إلى ابن عباس بأن المراد من قوله تعالى (إلا ما ظهر منها) الوجه والكفان، ليس مطلقاً وإنما هو مقيد في بيتها لمن دخل من الناس عليها (٢).

قوله تعالى: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾.

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وليلقين خُمُرَهنَّ، وهي جمع خمار، على جيوبهن؛ ليسترن بذلك شعورهن وأعناقهن وقرطَهنَّ(٣).

وعن عائشة –رضي الله عنها– قالت: "يرحم الله نساء المهاجرات الأول، لما أنزل الله: وليضربن بخمرهن على جيوبهن شققن مروطهن فاختمرن بها"(٤).

و"أصل الخمر: سترُ الشئ ويقال لما يستر به خمار لكن الخمار صار في التعارف اسما لما تغطى به المرأة رأسها، وجمعه خُمُر"(٥).

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري ٢٦١/١٧.

(٢) موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور للدكتور حكمت بشير٤٦٤/٣.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري ٢٦٢/١٧.

(٤) صحيح البخاري – كتاب تفسير القرآن سورة البقرة – باب وليضربن بخمرهن على جيوبهن– حديث رقم ٤٧٥٨.

(٥) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص ١٥٩.

وقد جاء في الحديث عن عائشة –رضي الله عنها– عن النبي ﷺ أنه قال: "لا يقبل الله صلاة حائض إلا بخمار"(١).

قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ ﴾.

والزينة ما أدخلته المرأة على بدنها حتى زانها وحسَّنها في العيون، كالحلي والثياب والكحل والخضاب، ومنه قوله تعالى: (خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ) (٢).

والمراد بالزينة هنا: الباطنة. فلما ذكر في الآية قبلها ما أباح أن يراه غيرُ ذوي المحرم من الزينة الظاهرة، ذكر في هذه ما أباح أن يراه الزوج وذوو المحارم من الزينة الباطنة، وبدأ بالبعولة وهم الأزواج؛ لأن اطلاعهم يقع على أعظم من هذا، ثم ثنى بذوي المحارم، وسوى بينهم في إبداء الزينة"(٣).

قال الإمام ابن كثير: وقد سأل بعض السلف فقال: لمَ لمْ يُذكر العمُّ والخال في هاتين الآيتين، فأجاب عكرمة والشعبي بأنهما لم يُذكرا؛ لأنهما قد يصفان ذلك لبنيهما"(٤).

وقال الزجاج "وهذه الآية نزلت في الحجاب فيمن يحل للمرأةِ البُرُوزُ لَهُ، فذكر الأبَ والابْنُ إلى آخر الآية. والمعنى لا جُناح عليهنَّ في رؤية آبَائِهن لَهُنَّ، ولم يذكر العم والخالَ؛ لأنهما يجريان مجرى الوالدين في الرؤية، وقد جاء في القرآن تسمية العم أباً في قوله: ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا ﴾، فَجَعَلَ العمَّ أباً(٥).

قال العلامة السعدي –رحمه الله– ولم يذكر فيها، أي: الآية السابقة، الأعمامَ والأخوال؛ لأنهن إذا لم يحتجبن عمن هنَّ عماته وخالاته، من أبناء الإخوة

---

(١) سنن أبي داود – كتاب الصلاة– باب المرأة تصلي بغير خمار–حديث رقم ٦٤١. وصححه العلامة الألباني في صحيح سنن أبي داود، حديث رقم ٦٤١.

(٢) تفسير النكت والعيون للماوردي ٩٠/٤.

(٣) التسهيل في علوم التنزيل لابن جزي الكلبي ٨٩/٢.

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢٠٨/٥.

(٥) معاني القرآن وإعرابه ٢٣٦/٤. وانظر: البحر المحيط لأبي حيان ٢٣٨/٧.

والأخوات، مع رفعتهن عليهم، فعدم احتجابهن عن عمهن وخالهن، من باب أولى"[1].

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: جمع رسول الله ﷺ فقال: "أفيكم أحد من غيركم؟ "فقالوا: لا؛ إلا ابن أخت لنا، فقال رسول الله ﷺ: "إن ابن أخت القوم منهم" فقال: "إن قريشا حديث عهد بجاهلية ومصيبة، وإني أردت أن أجبرهم وأتألفهم، أما ترضون أن يرجع الناس بالدنيا، وترجعون برسول الله إلى بيوتكم؟ لو سلك الناس واديا، وسلك الأنصار شعبا، لسلكت شعب الأنصار"[2].

قوله تعالى: ﴿ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ ﴾.

أي: ولا جناح عليهنَّ من إبداء الزينة للنساء المسلمات دون الكافرات؛ لئلا يصفنهنَّ للرجال، فإنه لا يمنعهن من ذلك مانع، أما المسلمة فإنها تخشى الله وتتقيه، وتعلم حرمة ذلك.

وفي الصحيح عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال النبي ﷺ: "لا تباشر المرأة المرأة، فتنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها"[3].

وكذلك لا حرج عليهنَّ فيما ملكت أيمانهنَّ من الإماء وإن كنَّ مُشركات، وكذلك العبيدُ.

قوله تعالى: ﴿ أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ ﴾.

أخرج الطبري بسنده الحسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﷺ قوله: (أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال)، فهذا الرجل يتبع القوم وهو مغفل في عقله، لا يكترث للنساء، ولا يشتهيهن، فالزينة التي تُبديها لهؤلاء قرطاها وقلادتها وسواراها، وأما خلخالاها ومعضداها ونحرها وشعرها فإنها لا تبديه إلا لزوجها"[4].

وقال ابن عباس: هو المغفل الذي لا شهوة له. وقال مجاهدٌ: هو الأبله. وقال عكرمة: هو المخنّثُ الذي لا يقوم ذكرُهُ"[5].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، سورة الأحزاب، آية ٥٥.

(٢) صحيح مسلم – كتاب الزكاة – باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه، حديث رقم ١٠٥٩.

(٣) صحيح البخاري – كتاب النكاح– باب: لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها – حديث رقم ٥٢٤٠.

(٤) موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور للدكتور حكمت بشير ٤٦٥/٣. وانظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري ٢٦٧/١٧.

(٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٤١/٤.

وفي الصحيح عن زينب بنت أبي سلمة، عن أمها أم سلمة ∀ دخل علي النبي ﷺ وعندي مخنثٌ، فسمعته يقول لعبد الله بن أبي أمية: يا عبد الله، أرأيت إن فتح الله عليكم الطائف غدا، فعليك بابنة غيلان، فإنها تقبل بأربع، وتدبر بثمان، وقال النبي ﷺ: "لا يدخلن هؤلاء عليكن"(١).

قوله تعالى: ﴿ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ﴾.

يَعْنِي: لِصِغَرِهِمْ لَا يَفْهَمُونَ أَحْوَالَ النِّسَاءِ وَعَوْرَاتِهِنَّ، مِنْ كَلَامِهِنَّ الرَّخِيمِ، وَتَعَطُّفِهِنَّ فِي الْمِشْيَةِ وَحَرَكَاتِهِنَّ، فَإِذَا كَانَ الطِّفْلُ صَغِيرًا لَا يَفْهَمُ ذَلِكَ، فَلَا بَأْسَ بِدُخُولِهِ عَلَى النِّسَاءِ. فَأَمَّا إِنْ كَانَ مُرَاهِقًا أَوْ قَرِيبًا مِنْهُ، بِحَيْثُ يَعْرِفُ ذَلِكَ وَيَدْرِيهِ، وَيُفَرِّقُ بَيْنَ الشَّوْهَاءِ وَالْحَسْنَاءِ، فَلَا يُمَكَّنُ مِنَ الدُّخُولِ عَلَى النِّسَاءِ"(٢).

قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾.

نهيٌ من الله جل وعلا للمؤمنات أن يتشبهن بنساء الجاهلية، فقد كانت إحداهنَّ إذا مشت في الطريق وفي رجلها خلخال ضربت برجلها الأرض لتسمع الرجال.

وأخرج الطبري بسنده الحسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: (وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ) فهو أن تقرع الخلخال بالآخر عند الرجال ويكون في رجليها خلاخل، فتحركهن عند الرجال، فنهى الله سبحانه وتعالى عن ذلك، لأنه من عمل الشيطان"(٣).

قال الإمام ابن كثير: وكذلك إذا كان شيءٌ من زينتها مستورا، فتحركت بحركة لتظهر ما هو خفي؛ دخل في هذا النهي؛ لقوله تعالى: ﴿... لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ ومن ذلك أيضا أنها تُنهى عن التعطر والتطيب عند خروجها من بيتها ليشتم الرجال طيبها(٤).

---

(١) صحيح البخاري – كتاب المغازي– باب غزوة الطائف – حديث رقم ٤٣٢٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٤٢/٤.

(٣) موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور للدكتور حكمت بشير ٤٦٥/٣. وانظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري ٢٧٣/١٧.

(٤) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص ١٥٩.

عن أبي موسى ﷺ عن النبي ﷺ قال: "كل عين زانية، والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس فهي كذا وكذا" يعني زانية[1].

قوله تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

أمرٌ من الله الرحمن لعباده أهل الإيمان بالتوبة والرجوع إليه جل وعلا بفعل ما أمر به من هذه الصفات الجميلة والأخلاق الجليلة، وبترْكِ ما كان عليه أهل الجاهليةِ من الصفات الرذيلة، فمن فعل ذلك فقد أفلح وظفر بخير الدنيا والآخرة.

والتوبة واجبة على كل أحد، قال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[4]، أي: وفّق من شاء من عباده للتوبة؛ ليستقيموا عليها.

والتوبة والاستغفار سبب الفلاح والنجاح والمتاع الحسن في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ ﴾[5].

والله جل وعلا يتوب على كل مستغفر وتائب، ولا يستعظمه ذنبٌ، فقال عز وجل في حق من أشرك به وادعى له الولد ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾[6].

---

(١) سنن الترمذي الجامع الصحيح – الذبائح– أبواب الأدب عن رسول الله ﷺ – باب ما جاء في كراهية خروج المرأة متعطرة– حديث رقم ٢٧٨٦.

(٢) سورة الحجرات: ١١.

(٣) سورة التحريم: ٨.

(٤) سورة التوبة:١١٨.

(٥) سورة هود: ٣.

(٦) سورة المائدة: ٧٤.

وقال جل ذِكْرُه في عُتاة الكافرين والمردة والمجرمين الذين قتّلوا المؤمنين وحرّقوهم بالنار ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ ﴾[1].

وأخبر جل وعلا أنه يحبُّ التوبة وأهلها، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾[2].

وفي الصحيح عن الحارث بن سويد ﷺ قال: دخلت على عبد الله أعوده وهو مريض، فحدثنا بحديثين:

حديثا عن نفسه، وحديثا عن رسول الله ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: "لله أشد فرحا بتوبة عبده المؤمن، من رجل في أرض دوية مهلكة، معه راحلته، عليها طعامه وشرابه، فنام فاستيقظ وقد ذهبت، فطلبها حتى أدركه العطش، ثم قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه، فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ وعنده راحلته وعليها زاده وطعامه وشرابه، فالله أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده"[3].

ويستفاد من الآيات:

١- وجوبُ غضّ البصر عما حرّم الله –جل وعلا– من العورات والفواحش، وأنه سببٌ لحفظ الفرْج.

٢- حفظُ الفرُوج سببٌ لزكاءِ النفوسِ وطهارتها.

٣- وجوبُ ستر المرأةِ المسلمةِ زينتها؛ إلا ما استثنى الله ﷻ من ذلك، كالذي يتعذر سترُه من زينة الثياب الظاهرة، أو الوجه والكفين عند طائفة من أهل العلم.

٤- ذكْرُ محارمِ المرأة الذين يجوز لها أن تُظهر زينتها بحضرتهم، وهي ما يظهر منها غالبا؛ كشعرها، وأعالي صدرها، ويديها، وبعض الذراعين والقدمين وبعض الساقين، وكذلك النساء المسلمات، وما ملكت أيمانهنّ، وكذلك الأجنبي الهرم أو المخرِّف والمعتوه والطفل الصغير الذي لا يعرف عن النكاح وعشرة النساء شيئا.

---

(١) سورة البروج: ١٠.

(٢) سورة البقرة: ٢٢٢.

(٣) صحيح مسلم – كتاب التوبة– باب في الحض على التوبة والفرح بها – حديث رقم ٢٧٤٤.

٥- حُرمةُ كل عمل يُفضي إلى حرام من باب سد الذرائع إلى المحرمات، كتحريك الخلخال في الرِّجْلِ، فإنه يُظهر ما تُخفي من زينتها.

٦- وجوبُ التوبة النصوح على الفور من كل ذنب وخطيئة، وأنها سببٌ للنجاة من كل مرهوب، والفوز بكل مرغوب في الدنيا والآخرة.

الدرس الثامن

(الترغيب في النكاح)

قال الله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾

التفسير:

اشتملت هذه الآيات الكريمات المبيَّنة على جُمَل من الأحكام المُحْكمة، والأوامر المُبرمة[١].

قوله تعالى: ﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ ﴾.

أمرٌ من الرحمن لعباده أهل الإيمان بتزويج من لا زوج له من الأحرار والحرائر، والصالحين والصالحات من العبيد والجواري.

قال الجوهري: "الأيامى: الذين لا أزواجَ لهم من الرجال والنساء، وأصلُها أيائم؛ فقلبت، لأن الواحد: رجلٌ أَيِّم، سواء كان تزوَّجَ من قبل أو لم يتزوَّج. وامرأةٌ أَيِّمٌ أيضاً، بكرا كانت أو ثيبا"[٢].

و"حكى ذلك أبو عمرو بن العلاء والكسائي وغيرهما. وذلك بيّن في قوله جلّ وعزّ: وَأَنْكِحُوا الْأَيامى مِنْكُمْ، فلم يُبِح ثيّبا دون بكر"[٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٤٣/٤.

(٢)الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري ١٨٦٨/٥.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٩٣/٣.

وتخصيص الصَّالِحِينَ لأن إحصان دينهم والاهتمام بشأنهم أهم"[١].

ويؤيد ذلك ما روى الترمذي عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض، وفساد عريض"[٢].

وقد رغَّب تبارك وتعالى في النكاح، كما في هذه الآية، وفي قوله تعالى:" ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾ ﴾[٣].

ورغَّب رسول الله ﷺ في النكاح، كما في الصحيح عن علقمة، قال: كنت مع عبد الله، فلقيه عثمان بمنى، فقال: يا أبا عبد الرحمن إن لي إليك حاجة فخلوا، فقال عثمان: هل لك يا أبا عبد الرحمن في أن نزوجك بكرا، تذكرك ما كنت تعهد؟ فلما رأى عبد الله أن ليس له حاجة إلى هذا أشار إلي، فقال: يا علقمة، فانتهيت إليه وهو يقول: أما لئن قلت ذلك، لقد قال لنا النبي ﷺ: " يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجاء"[٤].

وفي صحيح مسلم قال رسول الله ﷺ" يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء "[٥].

وعن معقل بن يسار ﷺ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني أصبت امرأة ذات حسب وجمال، وإنها لا تلد، أفأتزوجها، قال: "لا" ثم أتاه الثانية فنهاه، ثم أتاه الثالثة، فقال: "تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم"[٦].

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ١٠٥/٤.

(٢) سنن الترمذي الجامع الصحيح – أبواب الجنائز عن رسول الله ﷺ أبواب النكاح عن رسول الله ﷺ باب ما جاء إذا جاءكم من ترضون دينه فزوجوه، حديث رقم ١٠٨٤ ، وحسنه العلامة الألباني في صحيح سنن الترمذي، حديث رقم ١٠٨٤.

(٣) سورة النساء: ٣.

(٤) صحيح البخاري – كتاب النكاح باب قول النبي ﷺ: " من استطاع – حديث رقم ٥٠٦٥

(٥) صحيح مسلم – كتاب النكاح– باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، حديث رقم ١٤٠٠.

(٦) سنن أبي داود – كتاب النكاح باب النهي عن تزويج من لم يلد من النساء، حديث رقم ٢٠٥٠ – وقال العلامة الألباني في صحيح سنن أبي داود: حسن صحيح، حديث رقم ٢٠٥٠.

وفي صحيح البخاري عن سعيد بن جبير، قال: قال لي ابن عباس: هل تزوجت؟ قلت: لا، قال: "فتزوج فإن خير هذه الأمة أكثرها نساء "[1].

والنكاح من سنن المرسلين، قال الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾[2].

وعن أنس بن مالك ﷺ يقول: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا، فجاء رسول الله ﷺ إليهم، فقال: "أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني"[3].

قال الإمام ابن قدامة: "وَالنَّاسُ فِي النِّكَاحِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَضْرُبٍ: **مِنْهُمْ** مَنْ يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ الْوُقُوعَ فِي مَحْظُورٍ إنْ تَرَكَ النِّكَاحَ، فَهَذَا يَجِبُ عَلَيْهِ النِّكَاحُ فِي قَوْلِ عَامَّةِ الْفُقَهَاءِ؛ لِأَنَّهُ يَلْزَمُهُ إعْفَافُ نَفْسِهِ، وَصَوْنُهَا عَنْ الْحَرَامِ، وَطَرِيقُهُ النِّكَاحُ.

الثَّانِي، مَنْ يُسْتَحَبُّ لَهُ، وَهُوَ مَنْ لَهُ شَهْوَةٌ يَأْمَنُ مَعَهَا الْوُقُوعَ فِي مَحْظُورٍ، فَهَذَا الِاشْتِغَالُ لَهُ بِهِ أَوْلَى مِنْ التَّخَلِّي لِنَوَافِلِ الْعِبَادَةِ. وَهُوَ قَوْلُ أَصْحَابِ الرَّأْيِ. وَهُوَ ظَاهِرُ قَوْلِ الصَّحَابَةِ ﷺ وَفِعْلِهِمْ. قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ: لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنْ أَجَلِي إلَّا عَشْرَةُ أَيَّامٍ، وَأَعْلَمُ أَنِّي أَمُوتُ فِي آخِرِهَا يَوْمًا، وَلِي طَوْلُ النِّكَاحِ فِيهِنَّ، لَتَزَوَّجْت مَخَافَةَ الْفِتْنَةِ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ لِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: تَزَوَّجْ، فَإِنَّ خَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَكْثَرُهَا نِسَاءً. وَقَالَ إبْرَاهِيمُ بْنُ مَيْسَرَةَ: قَالَ لِي طَاوُسٌ: لَتَنْكِحَنَّ، أَوْ لَأَقُولَنَّ لَك مَا قَالَ عُمَرُ لِأَبِي الزَّوَائِدِ: مَا يَمْنَعُك عَنْ النِّكَاحِ إلَّا عَجْزٌ أَوْ فُجُورٌ. قَالَ أَحْمَدُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي رِوَايَةِ الْمَرُّوذِيِّ: لَيْسَتْ الْعُزْبَةُ مِنْ أَمْرِ الْإِسْلَامِ، فِي شَيْءٍ. وَقَالَ: مَنْ دَعَاكَ إلَى غَيْرِ التَّزْوِيجِ، فَقَدْ دَعَاكَ إلَى غَيْرِ الْإِسْلَامِ، وَلَوْ تَزَوَّجَ بِشْرٌ كَانَ قَدْ تَمَّ أَمْرُهُ... الْقِسْمُ الثَّالِثُ، مَنْ لَا شَهْوَةَ لَهُ، إمَّا لِأَنَّهُ لَمْ يُخْلَقْ لَهُ شَهْوَةٌ كَالْعِنِّينِ، أَوْ كَانَتْ لَهُ شَهْوَةٌ فَذَهَبَتْ بِكِبَرٍ أَوْ مَرَضٍ وَنَحْوِهِ، فَفِيهِ وَجْهَانِ؛ أَحَدُهُمَا، يُسْتَحَبُّ لَهُ النِّكَاحُ؛ لِعُمُومِ مَا

---

(١) صحيح البخاري - كتاب النكاح- باب كثرة النساء - حديث رقم ٥٠٦٩.

(٢) سورة الرعد: ٣٨.

(٣) صحيح البخاري - كتاب النكاح- باب الترغيب في النكاح، حديث رقم ٥٠٦٣.

ذَكَرْنَا. وَالثَّانِي، التَّخَلِّي لَهُ أَفْضَلُ؛ لِأَنَّهُ لَا يُحَصِّلُ مَصَالِحَ النِّكَاحِ، وَيَمْنَعُ زَوْجَتَهُ مِنْ التَّحْصِينِ بِغَيْرِهِ، وَيُضِرُّ بِهَا، وَيَحْبِسُهَا عَلَى نَفْسِهِ، وَيُعَرِّضُ نَفْسَهُ لِوَاجِبَاتٍ وَحُقُوقٍ لَعَلَّهُ لَا يَتَمَكَّنُ مِنْ الْقِيَامِ بِهَا، وَيَشْتَغِلُ عَنْ الْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ بِمَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ[1].

قوله تعالى: ﴿ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : رغّبهم الله في التزويج، وأمر به الأحرار والعبيد، ووعده عليه الغنى، فقال: ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [2].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "ثلاثة حق على الله عونهم: المجاهد في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف" [3].

وقد زوج رسول الله ﷺ رجلا فقيرا لم يجد إلا إزاره، بل لم يقدر على خاتم من حديد، زوَّجه المرأة التي وهبت نفسها لرسول الله ﷺ بعد رضاها، وجعل صداقها عليه؛ أن يُعلّمها ما يحفظه من القرآن، ثقة بكرم الله تعالى ولُطْفه وسعة رزقه، فهو الرزاق الكافي جل وعلا.

وعن سهل بن سعد الساعدي ﷺ قال: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، جئت أهب لك نفسي، قال: فنظر إليها رسول الله ﷺ فصعد النظر فيها وصوبه، ثم طأطأ رسول الله ﷺ رأسه، فلما رأت المرأة أنه لم يقض فيها شيئا جلست، فقام رجل من أصحابه، فقال: يا رسول الله، إن لم يكن لك بها حاجة فزوجنيها، فقال: " وهل عندك من شيء؟ "قال: لا والله يا رسول الله، فقال: " اذهب إلى أهلك فانظر هل تجد شيئا "، فذهب ثم رجع، فقال: لا والله ما وجدت شيئا، فقال رسول الله ﷺ: " انظر ولو خاتما من حديد "، فذهب ثم رجع، فقال: لا والله يا رسول الله ولا خاتما من حديد، ولكن هذا إزاري – قال سهل: ما له رداء – فلها نصفه، فقال رسول الله ﷺ: " ما تصنع بإزارك إن لبسته لم يكن عليها منه شيء، وإن لبسته لم يكن عليك منه شيء "، فجلس الرجل حتى إذا طال مجلسه قام، فرآه رسول الله ﷺ موليا، فأمر به فدعي، فلما جاء قال: "ماذا معك من القرآن". قال: معي سورة كذا وسورة كذا، عددها، فقال:

---

(١) المغني لابن قدامة ٤/٧، ٦.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري ٢٧٥/١٧.

(٣) الجامع الصحيح – الذبائح أبواب فضائل الجهاد – باب ما جاء في المجاهد والناكح والمكاتب وعون الله إياهم، حديث رقم ١٦٥٥. وحسنه العلامة الألباني في صحيح سنن الترمذي، حديث رقم ١٦٥٥.

"تقرؤهن عن ظهر قلبك" قال: نعم، قال: "اذهب فقد ملكتكها بما معك من القرآن"(١). فالناكح الذي يريد العفاف موعود بالعون من الله جل وعلا.

قال العلامة الشنقيطي: وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِه ﴾ (٢)، فِيهِ وَعْدٌ مِنَ اللَّهِ لِلْمُتَزَوِّجِ الْفَقِيرِ مِنَ الْأَحْرَارِ، وَالْعَبِيدِ بِأَنَّ اللَّهَ يُغْنِيه، وَاللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ، وَقَدْ وَعَدَ اللَّهُ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْفُقَرَاءَ بِالْيُسْرِ بَعْدَ ذَلِكَ الْعُسْرِ، وَأَنْجَزَ لَهُمْ ذَلِكَ، وَذَلِكُمْ فِي قَوْلِه تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ﴾(٣) أَيْ: ضُيِّقَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ إِلَى قَوْلِه تَعَالَى: ﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾(٤)، وَهَذَا الْوَعْدُ مِنْهُ – جَلَّ وَعَلَا – وَعَدَ بِهِ مَنِ اتَّقَاهُ فِي قَوْلِه تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾(٥)، وَوَعَدَ بِالرِّزْقِ أَيْضًا مَنْ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَيَصْطَبِرُ عَلَيْهَا، وَذَلِكَ فِي قَوْلِه: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾(٦)، وَقَدْ وَعَدَ الْمُسْتَغْفِرِينَ بِالرِّزْقِ الْكَثِيرِ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ نُوحٍ عليه السلام فِي قَوْلِه تَعَالَى عَنْهُ: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾(٧)، وَعَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ هُودٍ فِي قَوْلِه تَعَالَى عَنْهُ: ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ ﴾(٨)، وَعَلَى لِسَانِ نَبِيِّنَا – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمَا جَمِيعًا وَسَلَّمَ –: ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾(٩).

---

(١) صحيح البخاري – كتاب النكاح– باب تزويج المعسر –حديث رقم ٥٠٨٧.

(٢) سورة النور: ٣٢.

(٣) سورة الطلاق: ٧.

(٤) سورة الطلاق: ٧.

(٥) سورة الطلاق: ٢.

(٦) سورة طه: ١٣٢.

(٧) سورة نوح عليه السلام: ١٠: ١٢.

(٨) سورة هود: ٥٢.

(٩) سورة هود: ٣.

وَمِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ طَاعَةَ اللَّهِ تَعَالَى سَبَبٌ لِلرِّزْقِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾(١)، وَمِنْ بَرَكَاتِ السَّمَاءِ الْمَطَرُ، وَمِنْ بَرَكَاتِ الْأَرْضِ النَّبَاتُ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾(٢)، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾(٣) (٤).

قلتُ: ولا تثريب على الولي إذا منع موليته من نكاح فقير، فقد ثبَتَ أن رسول الله ﷺ قد نصح لفاطمة بنت قيس ∀ حين استشارته في نكاح معاوية بن أبي سفيان وأبي الجهم، فقال: "أما معاوية فرجل تَرِبٌ، لا مال له، وأما أبو جهم فرجل ضَرَّاب للنساء، ولكن أسامة بن زيد " فقالت بيدها هكذا: أسامة، أسامة، فقال لها رسول الله ﷺ: "طاعة الله، وطاعة رسوله خير لك "، قالت: فتزوجته، فاغتبطت"(٥).

قال الإمام النووي في فوائد هذا الحديث: وفيه (الحادية عشرة: اسْتِحْبَابُ إِرْشَادِ الْإِنْسَانِ إِلَى مَصْلَحَتِهِ وَإِنْ كَرِهَهَا وَتَكْرَارِ ذَلِكَ عَلَيْهِ لِقَوْلِهَا قَالَ انْكِحِي أُسَامَةَ فَكَرِهَتْهُ ثُمَّ قَالَ انكحى أسامة فنكحته. الثانية عشرة: قَبُولُ نَصِيحَةِ أَهْلِ الْفَضْلِ وَالِانْقِيَادُ إِلَى إِشَارَتِهِمْ وأن عاقبتها محمودة)(٦).

قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾، أي: والله واسع الفضل، كثير الخير، عليمٌ بأحوال عباده، لا يخفى عليه شيءٌ تبارك وتعالى.

قوله تعالى: ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾.

هذا أمر مؤكد من الحق تبارك وتعالى بالتعفف عن الفواحش والحرام لمن ليس له طول على النكاح حتى يغنيهم الله من فضله، ويوسع عليهم من رزقه.

---

(١) سورة الأعراف: ٩٦.

(٢) سورة المائدة: ٦٦.

(٣) سورة النحل:٩٧.

(٤) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للعلامة الشنقيطي ٢٤٢/٦.

(٥) صحيح مسلم – كتاب الطلاق– باب المطلقة ثلاثا لا نفقة لها –حديث رقم ١٤٨٠.

(٦) شرح النووي على مسلم ١٠٧/١٠.

وقد سبق قوله ﷺ "يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء"(١).

وقد قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَأُحِلَّ..﴾(٢) إلى قوله تعالى: ﴿...ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٣).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ﴾.

وهذا أمرٌ من الحق تبارك وتعالى لأهل السعة والغنى والسادة إذا سألهم مماليكهم المكاتبة للعتق؛ أن يُكاتبوهم لذلك؛ إن علموا فيهم خيرا.

قال ابن عباس في رواية علي بن أبي طلحة: إن علمتم لهم حيلة، ولا تُلقوا مُؤْنتهم على المسلمين(٤).

وقال بعضهم: إن علمتم فيهم أمانة. وقال بعضهم: صدقا. وقال بعضهم: مالا(٥)، والأخيرُ قريبٌ من قول ابن عباس . والآية إذا كانت تحتملُ عدة معانٍ لا تضاد بينها؛ فإنها تُحملُ على الجميع، فإن القرآن حمالُ أوجه.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ﴾.

وهذا أمرٌ من الله تعالى بإعانةِ هؤلاء المكاتبين بالحطِّ مما عليهم، وكذلك بإعطائهم ما يستحقون من أموال الزكاة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾(٦).

---

(١) صحيح البخاري – كتاب النكاح باب قول النبي ﷺ: " من استطاع – حديث رقم ٥٠٦٥

(٢) سورة النساء: ٢٥.

(٣) سورة النساء: ٢٥.

(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري ٢٧٨/١٧.

(٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٤٥/٤.

(٦) سورة التوبة: ٦٠.

وعن علي عن ابن عباس في قول الله تعالى ﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ﴾، يقول: ضعوا عنهم من مكاتبتهم (١).

وقد سبق حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "ثلاثة حق على الله عونهم: المجاهد في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف" (٢).

وفي هذا نُوردُ حديثَ سلمان الفارسي ﷺ ومكاتبته، ولعظيمِ الفوائد نسوق الحديث بتمامه.

فعن عبد الله بن عباس قال: حدثني سلمان الفارسي ﷺ حديثه من فيه، قال: كنت رجلا فارسيا من أهل أصبهان من أهل قرية منها يقال لها "جَيٌّ"، وكان أبي "دِهقانَ" قريته، وكنت أَحبُّ خلق الله إليه، فلم يزل به حبه إياي حتى حبسني في بيته كما تُحبس الجارية، واجتهدت في المجوسية حتى كنت قَطَنَ النار الذي يوقدها لا يتركها تخبو ساعة، قال: وكانت لأبي ضيعة عظيمة، قال: فشغل في بنيان له يوما، فقال لي: يا بني، إني قد شغلت في بنيان هذا اليوم عن ضيعتي، فاذهب فاطلعها، وأمرني فيها ببعض ما يريد، فخرجت أريد ضيعته، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون، وكنت لا أدري ما أمر الناس لحبس أبي إياي في بيته، فلما مررت بهم، وسمعت أصواتهم، دخلت عليهم أنظر ما يصنعون، قال: فلما رأيتهم أعجبني صلاتهم، ورغبت في أمرهم، وقلت: هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه، فوالله ما تركتهم حتى غربت الشمس، وتركت ضيعة أبي ولم آتها، فقلت لهم: أين أصل هذا الدين؟ قالوا: بالشام قال: ثم رجعت إلى أبي، وقد بعث في طلبي وشغلته عن عمله كله، قال: فلما جئته، قال: أي بني، أين كنت؟ ألم أكن عهدت إليك ما عهدت؟ قال: قلت: يا أبت، مررت بناس يصلون في كنيسة لهم فأعجبني ما رأيت من دينهم، فوالله مازلت عندهم حتى غربت الشمس، قال: أي بني، ليس في ذلك الدين خير، دينك ودين آبائك خير منه، قال: قلت: كلا والله إنه لخير من ديننا، قال: فخافني، فجعل في رجلي قيدا، ثم حبسني في بيته، قال: وبعثت إلى النصارى فقلت لهم: إذا قدم عليكم ركب من الشام تجار من النصارى فأخبروني بهم، قال: فقدم عليهم ركب من الشام تجار من

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري ٢٨٥/١٧.

(٢) الجامع الصحيح – الذبائح أبواب فضائل الجهاد – باب ما جاء في المجاهد والناكح والمكاتب وعون الله إياهم، حديث رقم ١٦٥٥. وحسنه العلامة الألباني في صحيح سنن الترمذي، حديث رقم ١٦٥٥.

النصارى، قال: فأخبروني بهم، قال: فقلت لهم: إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فآذنوني بهم، قال: فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبروني بهم، فألقيت الحديد من رجلي، ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام، فلما قدمتها، قلت: من أفضل أهل هذا الدين؟ قالوا: الأسقف في الكنيسة، قال: فجئته، فقلت: إني قد رغبت في هذا الدين، وأحببت أن أكون معك أخدمك في كنيستك، وأتعلم منك وأصلي معك، قال: فادخل فدخلت معه، قال: فكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها، فإذا جمعوا إليه منها أشياء، اكتنزه لنفسه، ولم يعطه المساكين، حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق، قال: وأبغضته بغضا شديدا لما رأيته يصنع، ثم مات، فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه، فقلت لهم: إن هذا كان رجل سوء يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه، ولم يعط المساكين منها شيئا، قالوا: وما علمك بذلك؟، قال: قلت أنا أدلكم على كنزه، قالوا: فدلنا عليه، قال: فأريتهم موضعه، قال: فاستخرجوا منه سبع قلال مملوءة ذهبا وورقا، قال: فلما رأوها قالوا: والله لا ندفنه أبدا فصلبوه، ثم رجموه بالحجارة، ثم جاءوا برجل آخر، فجعلوه بمكانه، قال: يقول سلمان: فما رأيت رجلا لا يصلي الخمس، أرى أنه أفضل منه، أزهد في الدنيا، ولا أرغب في الآخرة، ولا أدأب ليلا ونهارا منه، قال: فأحببته حبا لم أحبه من قبله، فأقمت معه زمانا، ثم حضرته الوفاة، فقلت له: يا فلان إني كنت معك وأحببتك حبا لم أحبه من قبلك وقد حضرك ما ترى من أمر الله، فإلى من توصي بي، وما تأمرني؟، قال: أي بني والله ما أعلم أحدا اليوم على ما كنت عليه، لقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه، إلا رجلا بالموصل، وهو فلان، فهو على ما كنت عليه، فالحق به، قال: فلما مات وغيب، لحقت بصاحب الموصل فقلت له: يا فلان، إن فلانا أوصاني عند موته أن ألحق بك، وأخبرني أنك على أمره، قال: فقال لي: أقم عندي فأقمت عنده، فوجدته خير رجل على أمر صاحبه، فلم يلبث أن مات، فلما حضرته الوفاة، قلت له: يا فلان، إن فلانا أوصى بي إليك، وأمرني باللحوق بك، وقد حضرك من الله عز وجل ما ترى، فإلى من توصي بي، وما تأمرني؟ قال: أي بني، والله ما أعلم رجلا على مثل ما كنا عليه إلا بنصيبين، وهو فلان، فالحق به، قال: فلما مات وغيب لحقت بصاحب نصيبين، فجئته فأخبرته خبري، وما أمرني به صاحبي، قال: فأقم عندي، فأقمت عنده، فوجدته على أمر صاحبيه، فأقمت مع خير رجل، فوالله ما لبث أن نزل به الموت، فلما حضر، قلت له: يا فلان،

إن فلانا كان أوصى بي إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك، فإلى من توصي بي، وما تأمرني؟ قال: أي بني، والله ما نعلم أحدا بقي على أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجلا بعمورية، فإنه على مثل ما نحن عليه، فإن أحببت فأته، قال: فإنه على أمرنا، قال: فلما مات وغيب لحقت بصاحب عمورية، وأخبرته خبري، فقال: أقم عندي، فأقمت مع رجل على هدي أصحابه وأمرهم، قال: واكتسبت حتى كان لي بقرات وغنيمة، قال: ثم نزل به أمر الله، فلما حضر قلت له: يا فلان، إني كنت مع فلان، فأوصى بي فلان إلى فلان، وأوصى بي فلان إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك، فإلى من توصي بي، وما تأمرني؟ قال: أي بني، والله ما أعلمه أصبح على ما كنا عليه أحد من الناس آمرك أن تأتيه، ولكنه قد أظلك زمان نبي هو مبعوث بدين إبراهيم يخرج بأرض العرب، مهاجرا إلى أرض بين حرتين بينهما نخل، به علامات لا تخفى: يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل، قال: ثم مات وغيب، فمكثت بعمورية ما شاء الله أن أمكث، ثم مر بي نفر من كلب تجارا، فقلت لهم: تحملوني إلى أرض العرب، وأعطيكم بقراتي هذه وغنيمتي هذه؟ قالوا: نعم فأعطيتهموها وحملوني، حتى إذا قدموا بي وادي القرى ظلموني فباعوني من رجل من يهود عبدا، فكنت عنده، ورأيت النخل، ورجوت أن تكون البلد الذي وصف لي صاحبي، ولم يحق لي في نفسي، فبينما أنا عنده، قدم عليه ابن عم له من المدينة من بني قريظة فابتاعني منه، فاحتملني إلى المدينة، فوالله ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبي، فأقمت بها وبعث الله رسوله، فأقام بمكة ما أقام لا أسمع له بذكر مع ما أنا فيه من شغل الرق، ثم هاجر إلى المدينة، فوالله إني لفي رأس عذق لسيدي أعمل فيه بعض العمل، وسيدي جالس، إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه، فقال: فلان، قاتل الله بني قيلة، والله إنهم الآن لمجتمعون بقباء على رجل قدم عليهم من مكة اليوم، يزعمون أنه نبي، قال: فلما سمعتها أخذتني العرواء، حتى ظننت سأسقط على سيدي، قال: ونزلت عن النخلة، فجعلت أقول لابن عمه ذلك: ماذا تقول؟ ماذا تقول؟ قال: فغضب سيدي فلكمني لكمة شديدة، ثم قال: ما لك ولهذا أقبل على عملك، قال: قلت: لا شيء، إنما أردت أن أستثبته عما قال: وقد كان عندي شيء قد جمعته، فلما أمسيت أخذته ثم ذهبت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بقباء، فدخلت عليه، فقلت له: إنه قد بلغني أنك رجل صالح، ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة، وهذا شيء كان عندي

للصدقة، فرأيتكم أحق به من غيركم قال: فقربته إليه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: " كلوا " وأمسك يده فلم يأكل، قال: فقلت في نفسي: هذه واحدة، ثم انصرفت عنه فجمعت شيئا، وتحول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، ثم جئته به، فقلت: إني رأيتك لا تأكل الصدقة، وهذه هدية أكرمتك بها، قال: فأكل رسول الله ﷺ منها وأمر أصحابه فأكلوا معه، قال: فقلت في نفسي: هاتان اثنتان، قال: ثم جئت رسول الله ﷺ وهو ببقيع الغرقد، قال: وقد تبع جنازة من أصحابه، عليه شملتان له، وهو جالس في أصحابه، فسلمت عليه، ثم استدرت أنظر إلى ظهره، هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي؟ فلما رآني رسول الله ﷺ استدبرته، عرف أني أستثبت في شيء وصف لي، قال: فألقى رداءه عن ظهره، فنظرت إلى الخاتم فعرفته، فانكببت عليه أقبله وأبكي، فقال لي رسول الله ﷺ: " تحول " فتحولت، فقصصت عليه حديثي كما حدثتك يا ابن عباس، قال: فأعجب رسول الله ﷺ أن يسمع ذلك أصحابه، ثم شغل سلمان الرق حتى فاته مع رسول الله ﷺ بدر، وأحد، قال: ثم قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: " كاتب يا سلمان " فكاتبت صاحبي على ثلاث مائة نخلة أحييها له بالفقير، وبأربعين أوقية، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: " أعينوا أخاكم " فأعانوني بالنخل: الرجل بثلاثين ودية، والرجل بعشرين، والرجل بخمس عشرة، والرجل بعشر، يعني: الرجل بقدر ما عنده، حتى اجتمعت لي ثلاث مائة ودية، فقال لي رسول الله ﷺ: " اذهب يا سلمان ففقر لها، فإذا فرغت فأتني أكون أنا أضعها بيدي " قال: ففقرت لها، وأعانني أصحابي، حتى إذا فرغت منها جئته فأخبرته، فخرج رسول الله ﷺ معي إليها فجعلنا نقرب له الودي ويضعه رسول الله ﷺ بيده، فوالذي نفس سلمان بيده، ما ماتت منها ودية واحدة، فأديت النخل، وبقي علي المال، فأتي رسول الله ﷺ بمثل بيضة الدجاجة من ذهب من بعض المغازي، فقال: "ما فعل الفارسي المكاتب؟ "قال: فدعيت له، فقال: " خذ هذه فأد بها ما عليك يا سلمان" فقلت: وأين تقع هذه يا رسول الله مما علي؟ قال: " خذها، فإن الله سيؤدي بها عنك" قال: فأخذتها فوزنت لهم منها، والذي نفس سلمان بيده، أربعين أوقية، فأوفيتهم حقهم، وعتقت، فشهدت مع رسول الله ﷺ الخندق، ثم لم يفتني معه مشهد"[1].

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل – مسند الأنصار– حديث سلمان الفارسي وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع، حديث رقم ٤٨٨١.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

وسبب نزول هذه الآية ما جاء في الصحيح عن جابر ﷺ قال: "كان عبد الله بن أبي ابن سلول يقول لجارية له: اذهبي فابغينا شيئا، فأنزل الله عز وجل: ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن لهن غفور رحيم "(١).

وفي الصحيح أيضا عن جابر ﷺ "أن جارية لعبد الله بن أبي ابن سلول يقال لها: مُسَيْكة، وأخرى يقال لها: أميمة، فكان يكرههما على الزنا، فشكتا ذلك إلى النبي ﷺ فأنزل الله: ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إلى قوله: غفور رحيم "(٢).

قال الإمام ابن كثير: "كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة أرسلها تزني، وجعل عليها ضريبة يأخذها منها كل وقت، فلماء جاء الإسلام نهى الله المؤمنين عن ذلك، وكان سبب نزول هذه الآية الكريمة، فيما ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف في شأن عبد الله بن أبيّ ابن سلول، فإنه كان له إماء، فكان يكرههن على البغاء طلباً لخراجهن، ورغبة في أولادهن ورياسة منه فيما يزعم"(٣).

وفي الآية نهيٌ من الله تبارك وتعالى عن إكراه الجواري والفتيات على الفواحش؛ طلبا للمال، ومن يفعل ذلك؛ فإن الله جل وعلا من بعد إكراههم لهنَّ غفور رحيمٌ بهنَّ.

ويقال: بَغَتِ المرأة تبغي بِغَاءً إذا فجرت(٤).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: "نهى النبي ﷺ عن كسب الإماء"(٥).

وعن رَافِعُ بْنُ خَدِيجٍ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «ثَمَنُ الْكَلْبِ خَبِيثٌ، وَمَهْرُ الْبَغِيِّ خَبِيثٌ، وَكَسْبُ الْحَجَّامِ خَبِيثٌ»(٦).

---

(١) صحيح مسلم – كتاب التفسير– باب في قوله تعالى: ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء – حديث رقم ٣٠٢٩-٢٦.

(٢) صحيح مسلم – كتاب التفسير– باب في قوله تعالى: ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء – حديث رقم ٣٠٢٩-٢٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٧٦/٤.

(٤) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٢٤٤/١.

(٥) صحيح البخاري – كتاب الإجارة– باب كسب البغي والإماء، حديث رقم ٢٢٨٣.

(٦) صحيح مسلم – كتاب المساقاة باب تحريم ثمن الكلب، حديث رقم ١٥٦٨.

وعن ابن عباس من طريق علي بن أبي طلحة في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾، يقول: ولا تُكرهوا إماءكم على الزنا، فإن فعلتم؛ فإن الله سبحانه لهنَّ غفور رحيم، وإثمهنّ على من أكرههنَّ[1].

وقد قال الله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾[2].

وعن ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ، قال: "إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ، والنسيان، وما استكرهوا عليه"[3].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

أي: ولقد أنزلنا إليكم أيها الناس هذه الأحكام وبيناها في آيات واضحات ودلالاتٍ مفسَّرات مفصَّلات بالحق، وأنزلنا فيها أخبارا عن الأمم الماضيةِ، فيها الموعظةُ لمن اتقى الله تبارك وتعالى وخشي عذابه.

"كتاب الله تعالى فيه نبأ من قبلكم، وخبر من بعدكم، وحُكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبّار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضلّه الله، وهو حبل الله المتين، ونوره المبين، والذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسن، ولا تتشعّب معه الآراء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يملّه الأتقياء ولا يَخْلَق على كثرة الرّد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴾ [4]، مَن علم علمه سبق، ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أُجر، ومن دعا إليه هُدِي إلى صراط مستقيم" رُوي عن عليّ ﷺ مرفوعا[5].

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري ٢٩٢/١٧.

(٢) سورة النحل: ١٠٦.

(٣) صحيح ابن حبان – كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة – ذكر الإخبار عما وضع الله بفضله عن هذه الأمة، حديث رقم ٧٢١٩. وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع، حديث رقم ١٧٣١.

(٤) سورة الجن: ١.

(٥) رواه الترمذي في باب ما جاء في فضل القرآن، وقال الترمذي: "حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث حمزة الزيّات، وإسنادُه مجهول، وفي حديث الحارث مقال": (١٥٨/٥)، وأخرجه الدارمي في سننه: (٥٢٦/٢) في باب فضل من قرأ القرآن، وأخرجه أحمد في مسنده بنحوه: (١١٤/١، الحديث: ٧٠٧). وانظر: تحفة الأحوذي للمباركفوري: (١٧٥/٨)، والراجح وقفه على أمير المؤمنين عليّ ﷺ. قال ابن=

ويستفاد من الآيات:

١- استحباب تزويج الأيامى من المسلمين أحرارا وعبيدا، ذكورا وإناثا، وإعانتهم على ذلك.

٢- وعدُ اللهِ تعالى لمن تزوجَ يريدُ العفافَ بالغنى والسعة.

٣- إثبات اسمي "الواسع" و"العليم" لله تعالى.

٤- وجوب الصبر والاستعفاف عن الفواحش والحرام، لمن ليس عنده سعةٌ حتى يُغنيه اللهُ تعالى.

٥- استحباب تحرير المماليك وإعانتهم بالمكاتبة إن عُلم فيهم خيرا.

٦- المكاتبُ يُعان على مكاتبته من أموال الزكاة والصدقات.

٧- حُرمة البغاء والمتاجرة بالفروج، وأنه سُحتٌ.

٨- رفعُ الإثم والحرج عمن أُكره على فعل الحرام؛ كما في هذه السورة، أو قول الحرام، كما في قوله تعالى في سورة النحل ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦ ﴾[1].

٩- امتنان الله تعالى على عباده ببيان هذه الأحكام والآداب والمواعظ في هذه السورة العظيمة.

=كثير: والحديث مشهور من رواية الحارث الأعور، وقد تكلموا فيه، بل كذبه بعضهم من جهة رأيه واعتقاده، أما أنه تعمد الكذب في الحديث فلا، والله أعلم. وقُصارى هذا الحديث أنه من كلام أمير المؤمنين علي ﷺ، وقد وهم بعضهم في رفعه، وهو كلام حسن صحيح، على أنه رُوي له شاهد عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ. انظر: فضائل القرآن لابن كثير ص٢٥.

(١) سورة النحل: ١٠٦.

الدرس التاسع

(الله نور السماوات والأرض)

قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۗ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٣٥﴾ ﴾.

القراءات وتوجيهها:

قال الإمام ابن الجزري: (وَاخْتَلَفُوا) فِي: (دُرِّيٌّ)، فَقَرَأَ أَبُو عَمْرٍو وَالْكِسَائِيُّ بِكَسْرِ الدَّالِ مَعَ الْمَدِّ وَالْهَمْزِ، وَقَرَأَ حَمْزَةُ وَأَبُو بَكْرٍ بِضَمِّ الدَّالِ وَالْمَدِّ وَالْهَمْزِ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِضَمِّ الدَّالِ وَتَشْدِيدِ الْيَاءِ مِنْ غَيْرِ مَدٍّ، وَلَا هَمْزٍ، وَحَمْزَةُ، عَلَى أَصْلِهِ فِي تَخْفِيفِهِ وَقْفًا بِالْإِدْغَامِ"(١).

"قال أبو علي: من قرأ (درّيء) احتمل قوله أمرين أحدهما: أن يكون نسبه إلى الدّرّ، وذلك لفرط ضيائه ونوره، كما أنّ الدّرّ كذلك، ويجوز أن يكون فعيلا من الدّرء، فخفّف الهمزة، فانقلبت ياء كما تنقلب من النسيء والنبيء، ونحوه إذا خفّفت ياء.

ومن قرأ: (درّيء) كان فعيلا من الدّرء مثل السكير والفسّيق والمعنى: أنّ الخفاء يدفع عنه لتلألئه في ظهوره، فلم يخف كما خفي نحو السّها، وما لم يضيء من الكواكب.

قال أبو عثمان عن الأصمعى عن أبي عمرو قال: مذ خرجت من الخندق لم أسمع أعرابيا يقول إلّا (كأنّه كوكب دريء) بكسر الدال، قال الأصمعي: فقلت: أفيهمزون؟ قال: إذا كسروا فحسبك، قال: أخذوه من درأت النجوم تدرأ إذا اندفعت، وهذا فعيل منه، ومن قرأ:

(درّيء) كان فعيّلا من الدّرء الذي هو الدفع، وإن خففت الهمزة من هذا قلت: دري وقد حكى سيبويه عن أبي الخطاب: كوكب دريّ في الصفات، ومن الأسماء المرّيق: العصفر ومما يمكن أن يكون من هذا البناء قولهم: العلية، ألا تراه من علا، فهو فعيل منه، ومنه السرّيّة الأولى أن تكون فعيلة، وذلك أنّها لا تخلو من أن تكون من السرّ أو السّراة أو السرو أو السرور، فالأشبه أن تكون فعيلة من السرّ، ولأنّ صاحبها إذا أراد استيلادها لم يمتهنها، ولم يبتذلها لما يبتذل له من لا يراد للاستيلاد، ولا يكون فعيلة من

(١) النشر في القراءات العشر لابن الجزري ٢/٢٣٢.

السّراة، لأنّ السراة: الظّهر، وهي لا تؤتي من ذلك المأتى، ومن رأى ذلك جاز عنده أن تكون عنده فعيلة من السّراة، ولا تكون فعيلة من السّرّ، لأنّ السّرّ لا يتّجه فيها، إلّا أن يريد: أنّ المولى قد يسرّها عمن حدّثه، ويجوز إن أخذتها من السرور، لأنّ صاحبها يسرّ بها من حيث كانت نفسا عن الحرّة أمران: أحدهما أن تكون فعيلة من السّرور، والآخر أن تكون فعيلة من السّرّ، فأبدل من لام فعيلة للتضعيف حرف اللّين، وأدغم ياء فعيلة فيها فصار سرّيّة[١].

قال الإمام ابن الجزري: (وَاخْتَلَفُوا) فِي: يُوقَدُ فَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ، وَالْبَصْرِيَّانِ، وَأَبُو جَعْفَرٍ بِتَاءٍ مَفْتُوحَةٍ وَفَتْحِ الْوَاوِ وَالدَّالِ وَتَشْدِيدِ الْقَافِ، وَقَرَأَ نَافِعٌ وَابْنُ عَامِرٍ وَحَفْصٌ بِيَاءٍ مَضْمُومَةٍ، وَإِسْكَانِ الْوَاوِ وَتَخْفِيفِ الْقَافِ وَرَفْعِ الدَّالِ عَلَى التَّذْكِيرِ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ كَذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُمْ بِالتَّاءِ عَلَى التَّأْنِيثِ"[٢].

قال أبو علي الفارسي:" ومن قال: (يُوقد) كان كمن قرأ: (توقّد) في أنّه جعل فاعل الفعل المصباح، كما جعل فاعله المصباح في (توقّد). ومن قرأ (توقد) كان فاعله الزجاجة، والمعنى على مصباح الزجاجة، فحذف المضاف، وأقام المضاف إليه مقامه، فقال: (توقد) فحمل الكلام على لفظ الزجاجة، أو يريد بالزجاجة القنديل، فيقول: (توقد) على لفظ الزجاجة، وإن كان يريد القنديل، ومن قال: (توقّد) برفع الدّال وتشديد القاف وفتحها، فإنّه يحمل الكلام على الزجاجة، والمعنى:تتوقد وحذف التاء الثانية."[٣].

التفسير:

هذه آية النور، وبها سُمّيت هذه السورة العظيمة، فاللّه جل وعلا يُخبرُ أنه نور السموات والأرض، وهادي المخلوقات فيهما، ومُدبرُ الأمر فيهما، وبه استنارت السموات والأرض ومَن فيهما، فهو تبارك وتعالى نورٌ، وحجابه نورٌ، وكتابه ووحيه نورٌ.

قال ابن عباس من طريق علي بن أبي طلحة في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ يقولُ: الله سبحانه هادي أهل السموات وأهل الأرض"[٤].

---

(١) الحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسي ٣٢٣/٥.

(٢) النشر في القراءات العشر لابن الجزري ٢٣٢/٢.

(٣) الحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسي ٣٢٥/٥.

(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري ٢٩٥/١٧.

وعن أُبيٍّ بن كعب ﷺ من طريق أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عنه قال في قول الله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، قال: فبدء نور نفسه فذكَره، ثم ذكر نور المؤمن"(١).

وعن أبي موسى، قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات، فقال: "إن الله عز وجل لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور – وفي رواية أبي بكر: النار – لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه"(٢).

وكان من دعائه ﷺ فيما روى ابن عباس قال: كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال: "اللهم لك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد لك ملك السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت ملك السموات والأرض، ولك الحمد أنت الحق ووعدك الحق، ولقاؤك حق، وقولك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد ﷺ حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم، وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت – أو: لا إله غيرك(٣).

قال العلامة عبد الرحمن بن سعدي: "النور من أوصافه تعالى على نوعين:

نور حسي: وهو ما اتصف به من النور العظيم، الذي لو كشف الحجاب عن وجهه لأحرقت سُبُحَاتُ وجهه ونور جلاله ما انتهى إليه بصره من خلقه، وهذا النور لا يمكن التعبير عنه إلا بمثل هذه العبارة النبوية المؤدية للمعنى العظيم، وأنَّه لا تطيق المخلوقات كلُّها الثبوت لنور وجهه لو تبدَّى لها، ولولا أنَّ أهل دار القرار يعطيهم الرب حياة كاملة، ويعينهم على ذلك لَمَا تمكنوا من رؤية الرب العظيم. وجميع الأنوار في السموات العلوية كلُّها من نوره، بل نور جنات النعيم التي عرضها السموات والأرض ــ وسعتُها لا يعلمها إلا الله ــ من نوره، فنور العرش والكرسي والجنات من نوره، فضلاً عن نور الشمس والقمر والكواكب.

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري ٢٩٧/١٧.

(٢) صحيح مسلم – كتاب الإيمان– باب في قوله عليه السلام: إن الله لا ينام – حديث رقم ١٧٩.

(٣) صحيح البخاري – كتاب الجمعة– أبواب تقصير الصلاة – باب التهجد بالليل، حديث رقم ١١٢٠.

والنوع الثاني: نوره المعنوي وهو النور الذي نوّر قلوب أنبيائه وأصفيائه وأوليائه وملائكته، من أنوار معرفته وأنوار محبته، فإنَّ لمعرفته في قلوب أوليائه المؤمنين أنواراً بحسب ما عرفوه من نعوت جلاله، وما اعتقدوه من صفات جماله، فكلٌّ وصف من أوصافه له تأثير في قلوبهم، فإنَّ معرفة المولى أعظم المعارف كلِّها، والعلم به أجلّ العلوم، والعلم النافع كلُّه أنوار في القلوب، فكيف بهذا العلم الذي هو أفضل العلوم وأجلّها وأصلها وأساسها.

فكيف إذا انضم إلى هذا نور محبته والإنابة إليه، فهنالك تمتلئ أقطار القلب وجهاتُه من الأنوار المتنوعة وفنونِ اللذات المتشابهة في الحسن والنعيم.

فمعاني العظمة والكبراء والجلال والمجد، تملأ قلوبهم من أنوار الهيبة والتعظيم والإجلال والتكبير.

ومعاني الجمال والبر والإكرام: تملأها من أنوار المحبة والود والشوق.

ومعاني الرحمة والرأفة والجود واللطف: تملأ قلوبهم من أنوار الحب النامي على الإحسان، وأنوار الشكر والحمد بأنواعه والثناء.

ومعاني الألوهية: تملأها من أنوار التعبد، وضياء التقرُّب، وسناء التحبُّب، وإسرار التودُّد، وحرية التعلق التام بالله رغبة ورهبة، وطلباً وإنابة، وانصراف القلب عن تعلقه بالأغيار كلِّها.

ومعاني العلم والإحاطة والشهادة والقرب الخاص: تملأ قلوبهم من أنوار مراقبته، وتوصلهم إلى مقام الإحسان الذي هو أعلى المقامات كلِّها؛ أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك.

فكلُّ معنى ونعت من نعوت الرب يكفي في امتلاء القلب من نوره، فكيف إذا تنوّعت وتواردت على القلوب الطاهرة الزكية الذكية، وهنا يصدق على هذه القلوب القدسية انطباق هذا المثل عليها، وهو قوله: (مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ).

وهذا النور المضروب هو نور الإيمان بالله، وبصفاته وآياته مثله في قلوب المؤمنين مثل هذا النور الذي جمع جميع الأوصاف التي فيها زيادة النور، وهو أعظم مثل يعرفه العباد. وقد دعا ﷺ لحصول هذا النور فقال: «اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي سمعي

نوراً، وفي بصري نوراً، وعن يميني نوراً، وعن شمالي نوراً، ومن فوقي نوراً، ومن تحتي نوراً، اللهم اجعلني نوراً».

ومتى امتلأ القلب من هذا النور فاض على الوجه، فاستنار الوجه، وانقادت الجوارح بالطاعة راغبة. وهذا النور الذي يكون في القلب هو الذي يمنع العبد من ارتكاب الفواحش، كما قال النبي ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن» فأخبر أنَّ وقوع هذه الكبائر لا يكون ولا يقع مع وجود الإيمان ونوره(١).

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ﴾.

ثم ضرب تبارك وتعالى مثلا لنوره، أي هدايته في قلب المؤمنِ، وقال بعضهم: مثلا لنور المؤمن الذي في قلبه.

قال الإمام ابن كثير: فشبّه قلب المؤمن، وما هو مفطور عليه من الهدى، وما يتلقاه من القرآن المطابق لما هو مفطور عليه، كما قال تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾(٢)، فشبَّه قلب المؤمن في صفائه في نفسه بالقنديل من الزجاج الشفاف الجوهري، وما يستهديه من القرآن والشرع بالزيت الجيد الصافي المشرق المعتدل الذي لا كدَر فيه ولا انحراف"(٣).

والمشكاةُ: الكُوّةُ غيرُ النَّافِذَة. وَقِيلَ: هِيَ الحديدةُ الَّتِي يُعَلَّقُ عَلَيْهَا القِنديل"(٤).

و"يُقال للسِّراج مصباحٌ"(٥).

والمعنى: شبّه تبارك وتعالى لنوره في قلب عبده المؤمن بالكُوة في الحائط غير النافذة التي كأنها حُفرة في الحائط، فيها مصباح وقَّاد في زُجاجة كأنها من صفائها كوكبٌ مُضيء كالدّر، ويستمد هذا المصباح والسراج ضوءه وإنارته من زيت شجرة مباركة،

---

(١) فتح الرحيم الملك العلام في علم العقائد والتوحيد والأخلاق والأحكام صـ٦٢ وما بعدها.

(٢) سورة هود: ١٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٤٩/٤.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٣٣٤/٤.

(٥) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصبهاني ص٤٧٣.

وهي "شجرة الزيتون"، وهذه الشجرة لا شرقية ولا غربية، بل تُصيبها الشمس من كل الجهات، إذا طلعت وإذا غربت، ويكادُ زيتها من صفائه يُضيء، فإذا مسَّته النارُ ازداد إضاءة وتوقدًا.

ويُروى عن أبي تمام الشاعر أنه مدح الخليفة المعتصم، فقال فيه:

إِقْدَامُ عَمْرٍو فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ فِي حُلْمِ أَحْنَفَ، فِي ذَكَاءِ إِيَاسِ

فَقَالَ الوَزِيْرُ: شَبَّهتَ أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ بِأَجْلاَفِ العَرَبِ. فَأَطْرَقَ، ثُمَّ زَادَهَا:

لاَ تُنْكِرُوا ضَرْبِي لَـــهُ مَـنْ دُوْنَـهُ مَـــثَلاً شَرُوداً فِي النَّـدَى وَالْبَـاسِ

فَاللهُ قَدْ ضَـرَبَ الأَقَـلَّ لِنُـــــوْرِهِ مَثَلاً مِـنَ المِـشْكَاةِ وَالنِّـــــبْرَاسِ

قلتُ: هَذِهِ الأبيات صحيحة المعنى، وتدلّ على حدّة الفكر، وذكاء العقل، وسرعة البديهة لو ثبَتت، فقد قال الإمام الذهبي: هذه حِكَايَةٌ غَيْرُ صَحِيْحَةٍ(١).

قوله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

أي: نورٌ من إشراق الزيت، على نور من إشعال النار، فذلك مثلُ الهدى يضيء في قلب المؤمنين،والله يهدي ويوفق لاتباع القرآن من يشاء، ويضربُ الأمثال للناس؛ ليعقلوا عنه أمثاله وحكمه، والله بكل شيء عليم؛ لا يخفى عليه شيء(٢).

وكتاب الله جل وعلا مليء بضرب الأمثال؛ لتقريب المعاني إلى الأذهان والفهوم، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ٦٨/١١، ٦٩.

(٢) التفسير الميسر ص٣٥٤.

(٣) سورة العنكبوت: ٤٣.

(٤) سورة البقرة: ٢٦.

وكذلك السنة المطهرة مليئة بذلك، كما في الصحيحين وغيرهما من كتب السنة، حتى قال عمرو بن العاص ﷺ: "عقلت عن رسول الله ﷺ ألفَ مثل"(١).

ويستفاد من هذه الآية:

١- الله تعالى هو الهادي لجميع خلقه، ومنه تُطلب الهداية والنور.

٢- ضرب الأمثال لتقريب المعاني مسلك رباني، وهديٌ إيماني؛ وفي الكتاب والسنةُ شواهد كثيرة لذلك.

٣- إثبات علم الله تعالى الكامل والشامل لكل شيء.

الدرس العاشر

(بيوت الله تعالى وعُمَّارُها)

قال الله تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾.

القراءات وتوجيهها:

قال الإمام ابن الجزري: (وَاخْتَلَفُوا) فِي: يُسَبِّحُ فَقَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ وَأَبُو بَكْرٍ بِفَتْحِ الْبَاءِ مُجَهَّلًا، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِكَسْرِهَا مُسَمًّى الْفَاعِلَ"(٢).

فمن قرأ بفتح الباء، كأنّه قيل: من يُسبِّحُ له فيها؟ قال: رجالٌ، وأما على قراءة من قرأ (يُسبِّحُ) بكسر الباء؛ فجعله فعلا، وفاعله رجالٌ، فلا يحسُن الوقف إلا على الفاعل؛ لأنه تمام الكلام"(٣).

التفسير:

لما ضرب الله تعالى مثل قلب المؤمن وما فيه من الهدى والعلم بالمصباح في الزجاجة الصافية المتوقِّد من زيتٍ طيب، وذلك كالقنديل مثلا؛ ذكر محلّها وهي المساجد التي هي أحب البقاع إلى الله تعالى من الأرض، وهي بيوته الذي يُعبدُ فيها ويُوحَّدُ(٤).

---

(١) مسند أحمد بن حنبل -مسند الشاميين- بقية حديث عمرو بن العاص عن النبي ﷺ -حديث رقم١٧٨٠٦.

(٢) النشر في القراءات العشر لابن الجزري ٢/٢٣٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/٥٥٨.

(٤) المرجع السابق ٤/٥٥٢.

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "أحب البلاد إلى الله مساجدها، وأبغض البلاد إلى الله أسواقها "(١).

فلذا أمر الله ﷻ أن يُرفع شأنُها وبناؤُها، ويُذكر فيها اسمُهُ بالأذانِ والصلوات وقراءة القرآن والذكْرِ.

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "صلاة الرجل في الجماعة تضعف على صلاته في بيته، وفي سوقه، خمسا وعشرين ضعفا، وذلك أنه: إذا توضأ، فأحسن الوضوء، ثم خرج إلى المسجد، لا يخرجه إلا الصلاة، لم يخط خطوة، إلا رفعت له بها درجة، وحط عنه بها خطيئة، فإذا صلى، لم تزل الملائكة تصلي عليه، ما دام في مصلاه: اللهم صل عليه، اللهم ارحمه، ولا يزال أحدكم في صلاة ما انتظر الصلاة"(٢).

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾(٣).

وظاهر الآية يدلُّ على أن إقامة الصلوات من المؤمنين في بيوت اللهِ من عمارتها، ولا شك أن بناء المساجد وتطهيرها من الدنس واللغو، وكذلك تطييبها مِن عمارتها الذي رتَّب عليه رسولُ الله ﷺ الأجر العظيم.

فعن محمود بن لبيد ﷺ أن عثمان بن عفان ﷺ أراد بناء المسجد، فكره الناس ذلك، وأحبوا أن يدعه على هيئته، فقال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: "من بنى مسجدا لله، بنى الله له في الجنة مثله"(٤).

ومع هذا فقد جاء النهي عن زخرفتها وتزويقها والتباهي بها.

فعن ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "ما أمرت بتشييد المساجد"، قال ابن عباس : لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى"(٥).

---

(١) صحيح مسلم – كتاب المساجد ومواضع الصلاة– باب فضل الجلوس في مصلاه بعد الصبح، حديث رقم ٦٧١.

(٢) صحيح البخاري – كتاب الأذان– أبواب صلاة الجماعة والإمامة – باب فضل صلاة الجماعة، حديث رقم ٦٤٧.

(٣) سورة التوبة: ١٨.

(٤) صحيح مسلم – كتاب الزهد والرقائق باب فضل بناء المساجد – حديث رقم ٥٣٣.

(٥) سنن أبي داود – كتاب الصلاة– باب في بناء المساجد – حديث رقم ٤٤٨. وصححه العلامة الألباني في صحيح سنن أبي داود، حديث رقم ٤٤٨.

وعن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: "لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد"(١).
وقال الإمام البخاري: قال أبو سعيد: " كان سقف المسجد من جريد النخل " وأمر عمر ببناء المسجد وقال: "أكن الناس من المطر، وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس " وقال أنس ﷺ: "يتباهون بها ثم لا يعمرونها إلا قليلا" وقال ابن عباس: "لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى"(٢).
ومن تعظيم بيوت الله جل وعلا خفضُ الأصوات فيها
عن السائب بن يزيد ﷺ قال: كنت قائما في المسجد فحصبني رجل، فنظرت فإذا عمر بن الخطاب، فقال: اذهب فأتني بهذين، فجئته بهما، قال: من أنتما – أو من أين أنتما؟ – قالا: من أهل الطائف، قال: " لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما، ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ"(٣).
قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ﴾.
يعني: يُصلّى له تعالى في بيوته في الصباح والمساء.
وما من شيء إلا يُسبحُ بحمد الله تعالى؛ فإنها صلاة كل شيء، وبها يُرزق الخلق، قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾(٤).
وأخرج الطبري بسنده الحسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: ثم قال: (يسبح له فيها بالغدو والأصال) يقول: يصلى له فيها بالغداة والعشي، يعني بالغدو: صلاة الغداة، ويعني الأصال: صلاة العصر وهما أول ما افترض الله من الصلاة فأحب أن يذكرهما ويذكر بهما عبادته(٥).

---

(١) سنن أبي داود – كتاب الصلاة– باب في بناء المساجد – حديث رقم٤٤٩. وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع، حديث رقم ٥٨٩٥.
(٢) صحيح البخاري – كتاب الصلاة– أبواب استقبال القبلة.
(٣) صحيح البخاري – كتاب الصلاة– أبواب استقبال القبلة – باب رفع الصوت في المساجد، حديث رقم ٤٧٠.
(٤) سورة الإسراء: ٤٤.
(٥) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري ٣٢٠/١٧. وموسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور للدكتور حكمت بشير ٤٧٣/٣.

ثم وصف جل وعلا الذين يُصلون في هذه المساجد التي أذن الله أن تُرفعَ ويُـذكر فيهـا اسمه بالأذان والصلوات وقراءة القرآن والذكر، فقال تعالى:

﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) ﴾.

أي: لا يشغلُهُم عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة لأهلها تجارة ولا بيعٌ.

وأخرج الطبري بسنده الحسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: (رجال لا تلهـيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) يقول: عن الصلاة المكتوبة) (١).

قال الإمام ابن كثير: "فقوله تعالى: (رِجَالٌ) فيـه إشـعار بهممهـم الـسامية، ونيـاتهم وعزائمهم العالية، التي بها صاروا عُمَّاراً للمساجد، التي هي بيـوت الله فـي أرضـه، ومواطن عبادته وشكره، وتوحيده وتنزيهه، كما قـال تعـالى: (مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣))، وأمـا النـساء فصلاتهن في بيوتهن أفضل لهن(٢).

والتجارة أكثر ما يشغل الناس ويلهيهم عن ذكـر الله تعـالى، والبيـعُ مـن التجـارة، وتخصيصه بالذكر للتنويه به، ولما فيه من شهوة التسويق وقبض الأموال، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ أي: يخافون اليوم الآخر، وهـو يوم القيامة، الذي تتقلب فيه القلوب والأبصار من الهول والفزع، وقد قـال الله تعـالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) ﴾ (٣).

وقـال تعـالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨) ﴾ (٤)، وكمـا قـال تعـالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري ٣٢٢/١٧. وموسوعة الصحيح المسبور للدكتور حكمت بشير ٤٧٤/٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٥٨/٤.

(٣) سورة الحج: ١، ٢.

(٤) سورة غافر: ١٨.

طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ۚ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ ﴾[2].

ومن تقلُّب القلوب يوم القيامة تحولها عن مكانها من شدة الخوف والفزع، كما قال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾[4].

قوله تعالى: ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾.

قال الإمام الطبري: (يقول: فعلوا ذلك، يعني أنهم لم تلههم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأطاعوا ربهم؛ مخافة عذابه يوم القيامة، كي يثيبهم الله يوم القيامة بأحسن أعمالهم التي عملوها في الدنيا، ويزيدهم على ثوابه إياهم على أحسن أعمالهم التي عملوها في الدنيا من فضله، فَيُفْضل عليهم من عنده بما أحبّ من كرامته لهم) [5].

ومن زيادته تعالى لهم مضاعفة الحسنات، كما قال تعالى: ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾[6]، وقال تعالى:

﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾[7].

قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾، أي: والله يمتن ويتفضل على من شاء من عباده بفضله وكرامته، وإن كانت أعمالهم لا تستحقُّ ولا تبلغُ المنزلة؛ فإن عمل الصالحاتِ سببٌ لرحمة الله تعالى في الدنيا والآخرة.

وإن العبد الصالح لو عُمّر عمر نوح عليه السلام وقضى ذلك العمر قائما راكعا ساجدا ما وفى الله تعالى حقَّه، ولهذا قال رسول الله ﷺ: "لن يدخل أحدا عمله الجنة " قالوا: ولا أنت يا

---

(١) سورة إبراهيم عليه السلام: ٤٢، ٤٣.

(٢) سورة المزمل ١٧، ١٨.

(٣) سورة غافر: ١٨.

(٤) سورة الأحزاب: ١٩.

(٥) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري ٣٢٥/١٧.

(٦) سورة الأنعام: ١٦٠.

(٧) سورة النمل: ٨٩.

رسول الله؟ قال: "لا، ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة، فسددوا وقاربوا، ولا يتمنين أحدكم الموت: إما محسنا فلعله أن يزداد خيرا، وإما مسيئا فلعله أن يستعتب"(١).

عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "كان رجلان في بني إسرائيل متواخيين، فكان أحدهما يذنب، والآخر مجتهد في العبادة، فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب فيقول: أقصر، فوجده يوما على ذنب فقال له: أقصر، فقال: خلني وربي أبعثت علي رقيبا؟ فقال: والله لا يغفر الله لك، أو لا يدخلك الله الجنة، فقبض أرواحهما، فاجتمعا عند رب العالمين فقال لهذا المجتهد: أكنت بي عالما، أو كنت على ما في يدي قادرا؟ وقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار " قال أبو هريرة: والذي نفسي بيده لتكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته"(٢).

ويستفاد من هذه الآيات:

١- وجوبُ تعظيم بيوت الله تعالى وإجلالها، وذلك بتطهيرها عن كل دنس، ورفع بنيانها، وعمارتها بذكر الله جل وعلا والصلاة وقراءة القرآن والعلم.

٢- مَن عَظَّمَ بُيوتَ الله، وكان من عُمّارها؛ فهو من الرجال الذين أثنى الله عليهم، كما قال تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ (٣).

٣- التجارةُ والبيعُ أكثرُ ما يشغلُ الناس ويُلهيهم عن ذكر الله تعالى إلا من رحم الله تعالى.

٤- وعدُ الله تعالى لعُمّار بيوته أن يجزيهم بأحسن ما عملوا، وأن يزيدهم من فضله، وأن يُوسّع عليهم، فاللَّهُ يرزق من يشاء بغير حساب، كما قال تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾ (٤).

---

(١) صحيح البخاري – كتاب المرضى– باب تمني المريض الموت من حديث أبي هريرة ﷺ – حديث رقم ٥٦٧٣.

(٢) سنن أبي داود– كتاب الأدب– باب في النهي عن البغي – حديث رقم (٤٩٠١)، وصححه العلامة الألباني في صحيح سنن أبي داود، حديث رقم ٤٩٠١.

(٣) سورة الأحزاب: ٢٣.

(٤) سورة طه: ١٣٢.

الدرس الحادي عشر
(مَثَلُ أعمال الكفار)

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ٤٠ ﴾.

القراءات وتوجيهها:

قال الإمام ابن الجزري: (وَاخْتَلَفُوا) فِي: سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ، فَرَوَى الْبَزِّيُّ " سَحَابُ " بِغَيْرِ تَنْوِينٍ ظُلُمَاتٌ بِالْخَفْضِ، وَرَوَى قُنْبُلٌ سَحَابٌ بِالتَّنْوِينِ ظُلُمَاتٍ بِالْخَفْضِ بَدَلًا مِنْ " ظُلُمَاتٍ الْمُتَقَدِّمَةِ وَيَكُونُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ مُبْتَدَأً وَخَبَرًا فِي مَوْضِعِ الصِّفَةِ لِـ "ظُلُمَاتٍ"، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ سَحَابٌ مُنَوَّنًا ظُلُمَاتٌ بِالرَّفْعِ عَلَى أَنَّهُ خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ"(١).

وحجة من نوّن الأول ورفعه وخفض (ظُلُماتٍ)؛ أنه رفع (سَحَابٌ) بالابتداء، و(مِن فَوقِهِ): الخبر. وخفضُ (ظُلُماتٍ) على البدل من (ظُلُمات) الأول.

وحُجة من رفع (ظُلُمات) أنه رفع على الابتداء، و (بعضُهَا) ابتداء ثانٍ. و(فَوقَ) خَبَرٌ ل(بعض)، وخبرها: خبرٌ عن ظلمات.

ويجوز أن تُرفعَ ظلمات على إضمار مبتدأ، أي: هي ظُلُمَاتٌ. أو: هذه ظُلُمات.

وحُجة من أضاف أنه رفع (سَحَابٌ) بالابتداء. وأضاف إلى (الظُّلُمات) ليبين في أي شيء هو، ومن فوقه الخبر، و (بعضها فوق بعض) ابتداءٌ وخبرٌ في موضع النعت للظلمات"(٢).

التفسير:

قال الفراء: (القيعة: جماع القاع، واحدها قاعٌ، كما قالوا: جارٌ وجيرة. والقاعُ من الأرض: المنبسط الَّذي لا نبت فيه، وَفيه يكون السراب) (٣).

والسراب: (اللامع في المفازة كالماء، وذلك لانسرابه في مرأى العين، وكان السراب فيما لا حقيقة له كالشراب فيما له حقيقة) (٤).

---

(١) النشر في القراءات العشر: ٢/٢٣٢.

(٢) الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها لأبي محمد مكي بن أبي طالب ٢/١٤٠.

(٣) معاني القرآن ٢/٢٥٤.

(٤) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ص٤٠٥.

قلت: هذان مثلان ضربهما الله تعالى لأعمال أهل الكفرِ، وأنها لا تنفع ولا تُجدي؛ لأنهم كفروا بالله، وجحدوا توحيده، وكذبوا رسله، فمثلُ أعمالهم كالسرابِ الذي يُرى في القيعانِ عند الظهيرة، يحسبه الظمآن ماءً وهو لا شيء، وكذلك أعمالهم،

كما قال تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ .[2] ﴾

وقال تعالى: ﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾[3].

وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قلت: يا رسول الله، ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المسكين، فهل ذاك نافعه؟ قال: "لا ينفعه، إنه لم يقل يوما: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين"[4].

وإن أعمل الكفار الصالحة قد ينتفعون بها –إن شاء الله– في الدنيا دون الآخرة كما قدمنا، قال تعالى: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[6].

وقال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾[7].

قوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ﴾، أي: وجد الله تعالى له بالمرصاد فوفاه جزاء أعماله التي عمل في الدنيا.

---

(١) سورة الفرقان: ٢٣.

(٢) سورة إبراهيم عليه السلام: ١٨.

(٣) سورة آل عمران: ١١٧.

(٤) صحيح مسلم – كتاب الإيمان– باب الدليل على أن من مات على الكفر لا ينفعه عمل – حديث رقم ٢١٤.

(٥) سورة الإسراء: ٢٠.

(٦) سورة هود ١٥، ١٦.

(٧) سورة الشورى: ٢٠.

قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾، فهو جل وعلا سريعٌ حسابُهُ، لا يحتاج إلى ما يحتاجُهُ البشر من عقد ولا عدّ، ولا حفظ بالقلب، فهو على كل شيء قدير، وبكل شيء عليم، فقد علمَ قبل العمل، وبعد العمل، وأحصى كل شيء وقدَّره تقديرا، وهو كما قال جل وعلا: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ ﴾[2].

قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ ﴾، أي: ومَثَلُ أعمالِ الكفار في خطئها وفسادِها وحيرة أهلها وضلالهم فيها مثلُ ظلمات في بحر عميقٍ يعلوه الموجُ، ومن فوقه موجٌ آخر، ومن فوقه سحاب كثيف، فهي ظُلماتٌ بعضها فوق بعض؛ إذا أخرج يده لم يكد يراها من شدة الظلمات، فهؤلاء الكفار اجتمعتْ عليهم ظلماتُ الجهلِ والشرك والضلال وفساد الأعمال.

قال الإمام ابن كثير بعد المثل الأول: (وهذا المثال مثال لذوي الجهل المركب، فأما أصحاب الجهل البسيط وهم الطماطم الأغشام المقلدون لأئمة الكفر الصم البكم الذين لا يعقلون فمثلهم كما قال تعالى: ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ ﴾ قال قتادة (جي) هو العميق ﴿ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ أي، لم يقارب رؤيتها من شدة الظلام، فهذا مثل قلب الكافر الجاهل البسيط، المقلد الذي لا يعرف حال من يقوده، ولا يدري أين يذهب، بل كما يقال في المثل للجاهل أين تذهب؟ قال معهم، قيل: فإلى أين يذهبون؟ قال لا أدري)[3].

قلتُ: والجاهل المُركب: هو الذي لا يدري ولا يدري أنه لا يدري، وهو أقبح أنواع الجهل، أما الجاهل البسيط؛ فهو الذي لا يدري، ويدري أنه لا يدري، فهو مُقرٌّ بجهله، قابل للتعليم، وفي الأول يقول الشاعر:

---

(١) سورة النحل:٤٠.

(٢) سورة النحل: ٧٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٦٢/٤.

قال حمـــــــــــار الحكيـــم يومًـا لـــو أنـــصفـــــــونى لكنـــت أركـــب
لأننى جـــــاهل بـسيـــــــــط وصاحبـى جاهـــــــل مـــــــركّب[1].

قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾، أي: من لم يجعل الله تعالى لـه إيمانـا صادقا، وعلما نافعا، وقلبا خاشعا، وهدايةً من كتابه جل وعلا، وسنة نبيـه ﷺ وهدْيـه، فهو جاهلٌ حائرٌ بائرٌ، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾[2].

ويستفاد من هذه الآيات:

١- تشبيه أعمال الكفار في زيفها وبطلانها وعدم نفعها عند الله تعـالى بالـسراب الذي له صورةٌ تخدعُ الرائي ولا حقيقة لها.

٢- تشبيه جهل وضلال الكفار بالذي يتخبطُ في ظلمات بعضها فوق بعض لا يرى شيئا ولا يهتدي إلى سبيل.

٣- مَن لم يَهده الله تعالى فما له من هاد، كمـا قـال تعـالى: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ ﴾[3]، وقال تعـالى: ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾[4]، وقـال تعـالى: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ ﴾[5]، وقـال تعـالى: ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾[6].

---

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب لشهاب الدين النويري ١٠/١٠٠.

(٢) سورة الرعد: ٣٣.

(٣) سورة الأعراف: ١٧٨.

(٤) سورة الإسراء: ٩٧.

(٥) سورة الكهف: ١٧.

(٦) سورة الأعراف: ١٨٦.

الدرس الثاني عشر

ذكر الله تعالى ومنه التفكر في آلائه

قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ ﴾

القراءات وتوجيهها:

قال الإمام ابن الجزري: (وَاخْتَلَفُوا) فِي: يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ فَقَرَأَ أَبُو جَعْفَرٍ بِضَمِّ الْيَاءِ وَكَسْرِ الْهَاءِ، فَقِيلَ: إِنَّ بَاءَ بِالْأَبْصَارِ تَكُونُ زَائِدَةً كَمَا هِيَ فِي وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ وَالظَّاهِرُ أَنَّهَا تَكُونُ بِمَعْنَى " مِنْ " كَمَا جَاءَتْ فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ:

شَرِبَ النَّزِيفُ بِبَرْدِ مَاءِ الْحَشْرَ، أَيْ: مِنْ بَرْدٍ، وَيَكُونُ الْمَفْعُولُ مَحْذُوفًا، أَيْ: يَذْهَبُ النُّورُ مِنَ الْأَبْصَارِ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِفَتْحِ الْيَاءِ وَالْهَاءِ"(١).

(وَاخْتَلَفُوا) فِي...: (خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ) ... فَقَرَأَ حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَخَلَفٌ، (خَالِقُ) فِيهَا بِأَلِفٍ وَكَسْرِ اللَّامِ وَرَفْعِ الْقَافِ وَخَفْضِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَ (كُلِّ) بَعْدَهُمَا، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِفَتْحِ اللَّامِ وَالْقَافِ مِنْ غَيْرِ أَلِفٍ ... وَ "كُلَّ" بِالْفَتْحِ"(٢).

و"وجه قول من قرأ: (خلق) أن ذلك أمر ماض فأخبروا عنه بلفظ المضيّ على فعل. ووجه من قال: (خالق) أنّه جعله مثل: (فاطر السموات والأرض) ألا ترى أنّ فاطرا بمعنى خالق، وكذلك قوله: (فالق الإصباح وجاعل الليل سكنا) هو على فاعل دون فعل، وهما مما قد فعل فيما مضى"(٣).

---

(١) النشر في القراءات العشر لابن الجزري ٢/٢٣٢.

(٢) المرجع السابق ٢/٢٩٨.

(٣) الحجة للقراء السبعة ٥/٢٨.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ﴾، أي: ألم تنظر يا محمدُ ﷺ بعين قلبك فتعلمَ أن الله يصلي له من في السموات والأرض من ملك وإنس وجنٍّ، والطير صافات في الهواء أيضا تسبح له"(١).

قوله تعالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾، **أي: أن الله تعالى قد أرشد وألهمَ وعلّم كل مخلوق كيف يُسبّح له ويُصلّي، وهو جلّ وعلا عالمٌ بكل ذلك، لا يخفى عليه شيءٌ. قال تعالى:** ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾(٣).

عن سليمان بن يسار إلى رجل من الأنصار(٤): أن رسول الله ﷺ قال: "قال نوح لابنه: "إني موصيك بوصية وقاصرها كي لا تنساها، أوصيك باثنتين، وأنهاك عن اثنتين: أما اللتان أوصيك بهما فيستبشر الله بهما، وصالح خلقه، وهما يكثران الولوج على الله تعالى، أوصيك بلا إله إلا الله، فإن السموات والأرض لو كانتا حلقة قصمتهما، ولو كانت في كفة وزنتهما، وأوصيك بسبحان الله وبحمده، فإنها صلاة الخلق، وبها يرزق الخلق، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا، وأما اللتان أنهاك عنهما فيحتجب الله منهما، وصالح خلقه، أنهاك عن الشرك والكبر"(٥).

والصلاةُ في اللغة: هي الدعاءُ والتبريك والتمجيد(٦).

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري ٣٣٣/١٧.

(٢) سورة الإسراء: ٤٤.

(٣) سورة طه: ٥٠.

(٤) وعند غير النسائي بطرقٍ كلها عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٥) السنن الكبرى للنسائي – كتاب عمل اليوم والليلة– أفضل الذكر – حديث رقم ١٠٦٠٠. وصححه العلامة الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، حديث رقم ١٥٣١.

(٦) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ص ٤٩٠.

وفي الصحيح عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا دعي أحدكم، فليجب، فإن كان صائما، فليصل، وإن كان مفطرا، فليطعم"(١)، أي: إن كان صائما؛ فليدع بالخير لمن دعاه.

و(مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ غَيْرَ الْعُقَلَاءِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ لَهَا إِدْرَاكٌ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُهُ، قَوْلُهُ تَعَالَى فِي الْحِجَارَةِ: ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾(٢)، فَأَثْبَتَ خَشْيَتَهُ لِلْحِجَارَةِ، وَالْخَشْيَةُ تَكُونُ بِإِدْرَاكٍ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾(٣)، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا... ﴾(٤)، وَالْإِبَاءُ وَالْإِشْفَاقُ إِنَّمَا يَكُونَانِ بِإِدْرَاكٍ، وَالْآيَاتُ وَالْأَحَادِيثُ وَارِدَةٌ بِذَلِكَ، وَهُوَ الْحَقُّ، وَظَاهِرُ الْآيَةِ أَنَّ لِلطَّيْرِ صَلَاةً وَتَسْبِيحًا، وَلَا مَانِعَ مِنَ الْحَمْلِ عَلَى الظَّاهِرِ، وَنَقَلَ الْقُرْطُبِيُّ عَنْ سُفْيَانَ: أَنَّ لِلطَّيْرِ صَلَاةً لَيْسَ فِيهَا رُكُوعٌ وَلَا سُجُودٌ)(٥).

قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ ﴾، أي: ولله جل وعلا مُلكُ السموات والأرض والسلطانُ فيهما، فهو الحاكم المتصرف الذي لا مُعقّب لحكمه، فهو أهل الثناء والحمد، والإلهُ الذي لا تجوز العبادةُ إلا له، فإليه الفزعُ، وإليه الرغبُ والرهبُ، وإليه المرجعُ يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۚ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ ﴾

أي: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي، يَعْنِي يَسُوقُ بِأَمْرِهِ، سَحاباً، إِلَى حَيْثُ يريد، ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ، يعني يَجْمَعُ بَيْنَ قِطَعِ السَّحَابِ الْمُتَفَرِّقَةِ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكاماً، مُتَرَاكِمًا

(١) صحيح مسلم – كتاب النكاح– باب الأمر بإجابة الداعي إلى دعوة – حديث رقم ١٤٣١.

(٢) سورة البقرة: ٧٤.

(٣) سورة الحشر: ٢١.

(٤) سورة الأحزاب: ٧٢.

(٥) أضواء البيان لمحمد الأمين الشنقيطي ٢٧٢/٦.

بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ، فَتَرَى الْوَدْقَ، يَعْنِي الْمَطَرَ، يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ، وَسَطِهِ وَهُوَ جَمْعُ الْخَلَلِ، كَالْجِبَالِ جَمْعِ الْجَبَلِ) (١).

وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾(٢).

قوله تعالى: ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ﴾، أي: ويُنزّل جل وعلا من السحاب الذي يُشبه الجبال في عظمته بَرَداً، والبردُ: "الذي ينزلُ من السحاب قطع ثلجٍ صلبٍ كالحصى؛ فيصيب به من يشاءُ من عباده رحمةً بهم، أو يُصيبُ به من يشاءُ من عباده نقمة عليهم، فيتلفُ به الزروع والأشجارَ، وينثر الثمارَ، ويصْرفه عمن يشاءُ، إما رحمةً أو نقمة، والله عليمٌ حكيمٌ.

قوله تعالى: ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾، أي يَكادُ شدّةُ ضوء برق هذا السحاب يخطفُ الأبصار؛ إذا اتبعته وتراءته.

ويقول بعض المعاصرين أن البرقَ لا يكونُ إلا في السحب الرُكامية، التي فيها بردٌ، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ ﴾، أي: ومن دلائل قدرته جل وعلا أنه يُقلب الليل والنهار، فيصرفهما، ويتصرفُ فيهما، بمجيء أحدهما بعد الآخر، واختلافهما في الطول والقصر، فيأخذ من طول هذا في قصر هذا، حتى يعتدلا، ثم يأخذُ من هذا في هذا، وهكذا، ولله الحكمة البالغة، وجميع الخلقِ تحت أمره وقهره وعلمه.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾، أي: في خلق الله السحابَ وإنشائه من ضعف، ثم إنزال الماء والبرد منه، وكذلك تقليب الليل والنهار موعظة وعبرة ودليل لأولي الفهم والبصيرة على الخالق العظيم، والمالك المدبر الحكيم.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾، أي: والله خلق وأوجد بقدرته التامة كل دابة تدُبُّ على الأرض من ماءٍ، فالماء أصل كلّ حي، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾(٣)، فمنهم من يمشي على بطنه كالديدان والحيات، وما

(١) معالم التنزيل للبغوي ٤٢٢/٣.

(٢) سورة الروم: ٤٨.

(٣) سورة الأنبياء: ٣٠.

لا قوائم له، ومنهم من يمشي على رجلين كابن آدم والطير، ومنهم من يمشي على أربع كالأنعام وأكثر البهائم.

والله تعالى يخلق بقدرته وحكمته ما يشاء من الخلق، إن الله على كل شيء قدير.

والخلقُ: هو الإيجادُ من عدم، وهذا خاص بالله تعالى؛ قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ٦٢ ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ٢ ﴾(٢)، فهو مُوجد كل شيء من عدم. قال الراغب: و"هذا خلق إبداع من غير أصلٍ ولا احتذاء"، ويُستعمل في إيجاد الشيء من الشيء، نحو قوله تعالى: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ﴾(٣)، وقوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٤ ﴾(٤)، وليس الخلق الذي هو الإبداع إلا لله تعالى، ولهذا قال في الفصل بينه تعالى وبين غيره: ﴿ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧ ﴾(٥)، وأما الذي يكون بالاستحالة؛ فقد جعله الله تعالى لغيره في بعض الأحوال كعيسى عليه السلام حيث قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي ﴾(٦)، والخلق من الناس على وجهين: الأول: التقديرُ. الثاني: الكذب، نحو قوله تعالى: ﴿ وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًا ﴾(٧)، (٨).

قوله تعالى: ﴿ لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٤٦ ﴾.

يقرر تعالى أنه أنزل في هذا القرآن من الحُكْم والحِكَم والأمثال البينة المُحكمة كثيرا جدا، وأنه يُرشدُ إلى تفهمها وتعقلها أولي الألباب والبصائر والنُّهى، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ (٩).

---

(١) سورة الزمر: ٦٢.

(٢) سورة الفرقان: ٢.

(٣) سورة النساء: ١.

(٤) سورة النحل: ٤.

(٥) سورة النحل: ١٧.

(٦) سورة المائدة: ١١٠.

(٧) سورة العنكبوت: ١٧.

(٨) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ص٢٩٦ باختصار.

(٩) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٦٤/٤.

والصراطُ المستقيمُ هو الإسلام، كما في كتاب الله تعالى، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾[1]، وفي مسند الإمام أحمد عن النواس بن سمعان الأنصاري ﷺ عن رسول الله ﷺ قال:

"ضرب الله مثلا صراطا مستقيما، وعلى جنبتي الصراط سوران، فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: أيها الناس، ادخلوا الصراط جميعا، ولا تتعرجوا، وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد يفتح شيئا من تلك الأبواب، قال: ويحك لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه،

والصراط الإسلام، والسوران: حدود الله، والأبواب المفتحة: محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط: كتاب الله، والداعي من فوق الصراط: واعظ الله في قلب كل مسلم"[2].

ويستفاد من هذه الآيات:

١- فضيلة التسبيح وإثباته لكل المخلوقات على كيفية لا يعلمها الله تعالى، قال تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾[3].

٢- إثبات مُلك الله تعالى لجميع الخلق، فهو المالك الخالق المدبر وإليه المصير.

٣- الدعوة إلى التفكر في مخلوقات الله تعالى وآلائه ونعمه، ومنها التفكرُ في كيفية إنزال الغيث، وكذلك تعاقب الليل والنهار، وما فيه من عبرة لأولي الأبصار.

٤- إثبات الخلق لله تعالى إيجادا من عدم، وتحويلاً من صورة لأخرى، وإثبات حكمته تعالى في تنوع المخلوقات.

٥- الماء أصل كل حيٍّ، كما قال تعالى:﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾[4].

---

(١) سورة الأنعام: ١٦١.

(٢) مسند أحمد بن حنبل – مسند الشاميين حديث النواس بن سمعان الكلابي الأنصاري – حديث: ١٧٦٣٤. وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع، حديث رقم ٣٨٨٧.

(٣) سورة الإسراء: ٤٤.

(٤) سورة الأنبياء: ٣٠.

٦- يخلقُ الله ما يشاء، ولا يخلقُ إلا لحكمة، وهو على كل شيء قدير، وأمْرُه بكُن فيكونُ، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾[1].

٧- امتنان الله تعالى على عباده بهذا الوحي المبارك المبين لهديه ودينه.

الدرس الثالث عشر

(أهل النفاق وصفاتهم)

قال الله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُواْ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾.

القراءات وتوجيهها:

(وَاخْتَلَفُوا) فِي: لِيَحْكُمَ ... مَوْضِعَيِ النُّورِ فَقَرَأَ أَبُو جَعْفَرٍ بِضَمِّ الْيَاءِ وَفَتْحِ الْكَافِ فِيهِنَّ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِفَتْحِ الْيَاءِ وَضَمِّ الْكَافِ[2].

قال الإمام الطبري: "فأضاف جل ثناؤه"الحكم" إلى"الكتاب"، وأنه الذي يحكم بين الناس دون النبيين والمرسلين، إذْ كان مَنْ حَكم من النبيين والمرسلين بحُكم، إنما يحكم بما دلَّهم عليه الكتاب الذي أنزل الله عز وجل، فكان الكتاب بدلالته على ما دلَّ وصفه على صحته من الحكم، حاكمًا بين الناس، وإن كان الذي يفصل القضاء بينهم غيرُه"[3].

ووجه الزمخشري قراءة أبي جعفر فقال: "فإن قلتَ: إلام أسند "يُحْكَمُ"؟ ولا بد له من فاعل. قلت: هو مسند إلى مصدره؛ لأن معناه: ليُفعلَ الحكم بينهم، ومثلُهُ "جمع بينهما"

---

(١) سورة النحل: ٤٠.

(٢) النشر في القراءات العشر لابن الجزري ٢/٢٢٧.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري ٣/٦٢٧.

و"ألّف بينهما"، ومثله "لَقَدْ تقطّع بينَكُم" فيمن قرأ "بَيْنَكُم" منصوبا، أي: وقع التقطُّع بينكم، وهذه القراءة مجاوبة لقوله "دُعُوا"(١).

التفسير:

هذه الآيات البيناتُ تُخبرُ عن شيء من صفات المنافقين وأحوالهم وأقوالهم، الذين يُظهرون خلاف ما يُبطنون، فمن أقوالهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾، فيزعمون أنهم صدَّقوا بالله عز وجل وما جاء عن الله عز وجل، وبالرسول ﷺ وما جاء عن الرسول ﷺ، قولا بألسنتهم، لا يوافق ما في قلوبهم المريضة.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ثم بعد هذا الزعم، تُخالف أفعالُهم أقوالَهم؛ فيعرض طوائف منهم، وتُدبر عن الله جل وعلا وعن رسوله ﷺ وحكمهما؛ لأنه لا يوافق أهواءهم ولا مآربهم.

ومَن هذه حالُهُ في النفاق والإعراض، فليس من المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾، أي: إذا دُعي هؤلاء المنافقون المُبطِلون إلى كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ –وفيها الهدى والنور– ليحكم بينهم في الخصومات؛ أعرضوا واستكبروا عن الحق.

كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ ﴾(٢). وقال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ (٣)، فلا يستقيم إيمان عبد حتى يؤمن بالله تبارك وتعالى ورسوله ﷺ، ويرضى بحكمهما.

والحُكم بغير ما أنزل الله تعالى في كتابه المبين، وسنة خليله محمد ﷺ سيد المرسلين، من أبرز صفات المنافقين، ومن أعمال الكفر التي تُخرج صاحبها من الدين؛ إذا لم يكن مُكرهاً أو جاهلا أو من المتأولين.

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري ٣/٢٤٩.

(٢) سورة النساء: ٦٠، ٦١.

(٣) سورة النساء: ٦٥.

قال الإمام ابن كثير في قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[1]، يقول: ومن لم يحكم بما أنزلتُ فتركه عمداً، أو جار وهو يعلمُ، فهو من الكافرين[2].

وقال الإمامُ الحبرُ البحرُ ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[3]: مَن جحدَ ما أنزل الله فقد كفرَ، ومَن أقرّ به ولم يحكم فهو ظالم فاسق[4].

ومن طريق طاووس عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[5]، قال: ليس بالكفر الذي يذهبون إليه، ورواه الحاكم في مستدركه من حديث سفيان بن عيينة، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه[6].

وقال الطبري: حدثنا محمد بن بشار قال، حدثنا عبد الرحمن قال، حدثنا سفيان عن ابن جريج عن عطاء قوله (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) قال: كفر دون كفر، وفسق دون فسق، وظلم دون ظلم" وسنده صحيح ورجاله ثقات[7].

وقال الإمام الطبري: وَأَوْلَى هَذِهِ الْأَقْوَالِ عِنْدِي بِالصَّوَابِ، قَوْلُ مَنْ قَالَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ فِي كُفَّارِ أَهْلِ الْكِتَابِ، لِأَنَّ مَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا مِنَ الْآيَاتِ فِيهِمْ نَزَلَتْ وَهُمُ الْمَعْنِيُّونَ بِهَا، وَهَذِهِ الْآيَاتُ سِيَاقُ الْخَبَرِ عَنْهُمْ، فَكَوْنُهَا خَبَرًا عَنْهُمْ أَوْلَى. فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذِكْرُهُ قَدْ عَمَّ بِالْخَبَرِ بِذَلِكَ عَنْ جَمِيعِ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ، فَكَيْفَ جَعَلْتَهُ خَاصًّا؟ قِيلَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَمَّ بِالْخَبَرِ بِذَلِكَ عَنْ قَوْمٍ كَانُوا بِحُكْمِ اللَّهِ الَّذِي حَكَمَ

(١) سورة المائدة: ٤٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٥٠/٢.

(٣) سورة المائدة: ٤٤.

(٤) صحيفة علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير القرآن الكريم ص١٧٩. وانظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري ٤٦٨/٨.

(٥) سورة المائدة: ٤٤.

(٦) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٥٠/٢.

(٧) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري ٤٦٤/٨. موسوعة الصحيح المسبور للدكتور حكمت بشير ١٨٤/٢.

بِهِ فِي كِتَابِهِ جَاحِدِينَ فَأَخْبَرَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ بِتَرْكِهِمُ الْحُكْمَ عَلَى سَبِيلِ مَا تَرَكُوهُ كَافِرُونَ. وَكَذَلِكَ الْقَوْلُ فِي كُلِّ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ جَاحِدًا بِهِ، هُوَ بِاللَّهِ كَافِرٌ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ؛ لِأَنَّهُ بِجُحُودِهِ حَكَمَ اللَّهُ بَعْدَ عِلْمِهِ أَنَّهُ أَنْزَلَهُ فِي كِتَابِهِ نَظِيرَ جُحُودِهِ نُبُوَّةَ نَبِيِّهِ بَعْدَ عِلْمِهِ أَنَّهُ نَبِيٌّ"(١).

"فمن استحلَّ الحكم بغير ما أنزل الله، واعتقده جائزا؛ فهو كفرٌ أكبرُ، وظلمٌ أكبر، وفسقٌ أكبر، يخرج من الملة، أما إن فعل ذلك من أجل الرشوة، أو مقصد آخر، وهو يعتقد تحريم ذلك، فإنه آثمٌ يُعتبر كافرا كُفرا أصغرُ، وظالما ظُلما أصغر، وفاسقا فسقا أصغر، لا يُخرجه من الملة، كما أوضح ذلك أهل العلم..." (٢).

ولسماحة الإمام العلامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله رسالةٌ في تحكيم القوانين، قد فصّل فيها القول وأبان وقد ابتدأها بقوله: "إن من الكفر الأكبر المستبين تنزيل القانون اللعين منزلة ما نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ ليكون من المنذرين بلسان عربي مبين في الحكم به بين العالمين، والرد إليه عند تنازع المتنازعين؛ مناقضة ومعاندة لقول الله عز وجل..." (٣).

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾، أي: وإن علم هؤلاء المنافقون أن الحكومة لهم، والحق في جانبهم؛ جاؤوا إلى النبي ﷺ سامعين طائعين منقادين لحكمه.

والإذعانُ: الانقياد، فإذا انقاد المرء ولم يستعص؛ فهو مُذعِنٌ، ومنه: ناقة مذْعانٌ، أي منقادة(٤).

قوله تعالى: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، أي: أفي قلوب هؤلاء المنافقين مرضٌ؟ أو شكٌّ في الدين ونبوة محمد ﷺ، أو: يخافون أن يجور الله جل وعلا ورسوله ﷺ عليهم في الخصومات والأحكام، وهذه الثلاث كفرٌ محضٌ، بل هم الظالمون الفجرة.

---

(١)جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري ٤٦٧/٨.

(٢) فتاوى اللجنة الدائمة – السؤال الحادي عشر من الفتوى رقم (٥٧٤١) برئاسة الإمام ابن باز رحمه الله.

(٣) رسالة تحكيم القوانين للإمام محمد بن إبراهيم آل الشيخ. وقد جمع بعض طلبة العلم للعلامة الألباني رحمه الله في ذلك رسالة وسمها بـ"فتنة التكفير"، وجمع فيها كلاما نفيسا للأئمة.

(٤) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ص٣٢٨. والمصباح المنير للفيومي ص٤٣٠.

لله تبارك وتعالى ورسوله ﷺ بريئان من ذلك، قال تعالى: ﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴿٤٩﴾ ﴾

وقال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾(٢).

ثم أخبر تعالى عن صفة المؤمنين المستجيبين لله ورسوله، الذين لا يبغون دينا سوى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

فقال: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ ﴾، أي: سمعا وطاعة، ولهذا وصفهم تعالى بالفلاح، وهو نيل المطلوب، والسلامة من المرهوب، فقال تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾(٣).

والإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ، وما جاء عنهما، والرضا والتسليم بالأحكام الشرعية؛ شعار المؤمنين من السلف الصالح ومن تبعهم بإحسان.

وبسبب تمسك السلف الصالح بهذه القاعدة العظيمة؛ أعزهم الله ورفع قدرهم، وعظم أجرهم، ورفعهم على الخلق، وبسبب تفريط كثير من الخلف في هذه القاعدة؛ زلوا وذلوا، والله المستعان.

قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴾، أي: ومن يُطع الله ورسوله في الأوامر والنواهي، ويخف عاقبة معصية الله، ويتق عذاب الله بطاعته فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر؛ فمن فعل ذلك فهو من الفائزين الذين فازوا بكل خير، وسلموا من كل شر في الدنيا والآخرة.

والخشية هي خضوع القلب والجوارح لله تعالى؛ طاعة وخشوعا وخوفا من مقامه ووعيده على سبيل التعبد لله تعالى.

قال الراغب: والخشية خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يُخشى منه، ولذلك خُصّ العلماء بها (٤).

---

(١) سورة الكهف: ٤٩.

(٢) سورة النحل: ٩٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٦٥/٤.

(٤) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني الأصفهاني ص٢٨٣.

قال الإمام ابن القيم: والخشية أخصُّ من الخوف، فإن الخشية للعماء بالله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾[1]، فهي خوف مقرون بمعرفة.

وقال صلى الله عليه وسلم: "إني أتقاكم لله، وأشدكم له خشية"[2].

وقال في موطن آخر: فالخوف لعامة المؤمنين، والخشية للعلماء العارفين، والهيبة للمحبين، والإجلال للمقربين،وعلى قدر العلم والمعرفة يكون الخوف والخشية[3].

وقال شيخنا العلامة محمد بن عثيمين رحمة الله علينا وعليه: والخشية نوع من الخوف، لكنها أخص منه، والفرق بينهما:

١- أن الخشية تكون مع العلم بالمخشي وحاله، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾[4]، والخوف قد يكون من الجاهل.

٢- أن الخشية تكون بسبب عظمة المخشي، بخلاف الخوف، فقد يكون من ضعف الخائف لا من قوة المخوف[5].

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقْسِمُواْۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، أي: وأقسم هؤلاء المنافقون بالله تعالى بأغلظ الأيمان وأشدها؛ لئن أمرتهم أيها الرسول بالخروج للجهاد معك ومع المؤمنين لَيَخرجنَّ، فقل لهم أيها الرسول: لا تحلفوا كذبا، فإن طاعتكم طاعة معروفة: قول بلا فعل.

وكثرة الحلف والأيمان من طبع المنافقين وعادتهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾﴾[6]، وقال تعالى في وصف المنافقين: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾[7]، وقال تعالى عنهم: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ

(١) سورة فاطر: ٢٨.
(٢) مدارج السالكين لابن القيم ٢١٢/١.
(٣) المرجع السابق ٥١٣/١.
(٤) سورة فاطر: ٢٨.
(٥) القول المفيد على كتاب التوحيد ٧٣/٢.
(٦) سورة القلم: ١٠.
(٧) سورة التوبة: ٥٦.

وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ ﴾ [2].

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾، أي: إن الله ذو خبرة بما تعملون من طاعتكم الله ورسوله، أو خلافكم أمرهما، أو غير ذلك من أموركم، لا يخفى عليه من ذلك شيء، وهو مجازيكم بكل ذلك[3].

قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾، أي: قُل يا أيها الرسول لهؤلاء ولغيرهم من الناس: أطيعوا الله تعالى وأطيعوا الرسول ﷺ بفعل أمرهما، واجتناب نهيهما، فإن أعرضوا، فإنما عليك أيها الرسول البلاغ المبين، كما قال تعالى: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [4]، وقال تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [5]، وقال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ ۖ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [6]، فقد حُمّل رسول الله ﷺ البلاغ المبين ﴿ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ﴾ أيها المبلَّغون فعل ما كُلّفتموه من قبول ذلك وتعظيمه، والامتثال.

قوله تعالى: ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ﴾، أي: وإن تطيعوا أيها الناس رسولَ الله ﷺ فيما يأمركم وينهاكم؛ ترْشُدوا، وتصيبوا الحق في أموركم" [7]. وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[8]. وقال تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ

---

(١) سورة التوبة: ٦٢.

(٢) سورة التوبة: ٧٤.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري ٣٤٤/١٧.

(٤) سورة المائدة: ٩٩.

(٥) سورة الرعد: ٤٠.

(٦) سورة الغاشية: ٢١، ٢٢.

(٧) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري ٣٤٥/١٧.

(٨) سورة الأعراف: ١٥٨.

حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾[2]. وما على الرسول ﷺ إلا البلاغ المبين عن ربه تبارك وتعالى.

ويستفاد من الآيات:

١- العمل مصداق القول، فمن خالف فعلُهُ قولَه ففيه من صفات المنافقين.

٢- وجوب التحاكم إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وأن ذلك من الإيمان.

٣- من أعرضَ عن حكم الله تعالى ورسوله ﷺ عند التخاصم وغيره فهو منافق معلوم النفاق.

٤- التحاكمُ للقوانين الوضعية البشرية التي لا تمتُّ للكتاب والسنة بصلة آية النفاق والشقاق، ومن أعمال الكفر التي قد تُخرجُ صاحبها عن الإسلام على تفصيل عند أهل العلم، وقد سبقَ.

٥- انصياع أهل النفاق للحق أحيانا ليس إيمانا وإنما لموافقته أهواءهم ومصالحهم الدنيوية.

٦- الله هو الحكم العدلُ، قال تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴿٤٩﴾ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٤٤﴾[4] ﴾.

٧- رسول الله ﷺ هو أمينُ مَن في السماء، وهو أعدلُ الخلق على الإطلاق وأصدقُهم وأبرُّهم؛ ففي الصحيح عن أبي سعيد الخدري ﷺ، قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسما، أتاه ذو الخويصرة، وهو رجل من بني تميم، فقال: يا رسول الله اعدل، فقال: " ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل، قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل " . فقال عمر: يا رسول الله، ائذن لي فيه فأضرب عنقه؟ فقال: "دعه، فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما

(١) سورة النساء: ٨٠.

(٢) سورة آل عمران: ١٣٢.

(٣) سورة الكهف: ٤٩.

(٤) سورة يونس: ٤٤.

يمرق السهم من الرمية، ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى رصافه فما يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى نضيه، – وهو قدحه –، فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى قذذه فلا يوجد فيه شيء، قد سبق الفرث والدم، آيتهم رجل أسود، إحدى عضديه مثل ثدي المرأة، أو مثل البضعة تدردر، ويخرجون على حين فرقة من الناس قال أبو سعيد: فأشهد أني سمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ وأشهد أن علي بن أبي طالب قاتلهم وأنا معه، فأمر بذلك الرجل فالتمس فأتي به حتى نظرت إليه على نعت النبي ﷺ الذي نعته"[1].

٨- الرضا والتسليم لأحكام الشرع القويم من تقوى الله عز وجل، وأهلها هم المؤمنون الفائزون والمفلحون.

٩- لا يجوز الحلِفُ إلا بالله تعالى.

١٠- كثرة الحلِف وامتهانُه من صفات المنافقين والكاذبين، وهو مقرونٌ بعدم الثقة والريبة، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾[2]﴾.

١١- أهل العلمِ والفضلِ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فعليها، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾[3]﴾، وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾[4]﴾.

١٢- اتباع النبي ﷺ وطاعته سببٌ للهداية التامةِ والسعادة في الدنيا والآخرة.

---

(١) صحيح البخاري – كتاب المناقب– باب علامات النبوة في الإسلام – حديث رقم ٣٦١٠.

(٢) سورة القلم: ١٠.

(٣) سورة الغاشية ٢١، ٢٢.

(٤) سورة الأعلى ٩: ١١.

الدرس الرابع عشر

(أسباب التمكين والاستخلاف في الأرض)

قال الله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ ﴾

القراءات وتوجيهها:

(وَاخْتَلَفُوا) فِي: (كَمَا اسْتَخْلَفَ)، فَرَوَى أَبُو بَكْرٍ بِضَمِّ التَّاءِ وَكَسْرِ اللَّامِ، وَيَبْتَدِئُ بِضَمِّ هَمْزِ الْوَصْلِ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِفَتْحِهِمَا، وَيَبْتَدِئُونَ بِكَسْرِهَا"[(١)].

قال أبو منصور: معنى (كَمَا اسْتَخْلَفَ): كَمَا اسْتَخْلَفَ اللَّه الَّذِينَ من قبلهم.

وَمَنْ قَرَأَ (كَمَا اسْتُخْلِفَ الَّذِينَ من قبلهم) الذين، في موضع الرفع؛ لأنه مفعول لم يُسم فاعله، ومعنى استخلفهم، أي: جعلهم يَخْلُفُون مَنْ قبلهم"[(٢)].

أي: يكونون بدل مَنْ كان قبلهم في الأرض.

(وَاخْتَلَفُوا) فِي: (وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ) فَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَيَعْقُوبُ وَأَبُو بَكْرٍ بِتَخْفِيفِ الدَّالِ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِالتَّشْدِيدِ"[(٣)].

فمن خفَّف جعله من "أبدل"، ومن شدَّد جعله من "بدَّل". قال مكي: وهما لغتان: أبدل وبدّل، وفي التشديد معنى التكثير"[(٤)].

قال مكّي: " قوله:"لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا " قرأ حمزة وابن عامر بالياء، وقرأ الباقون بالتاء. وحجة من قرأ بالياء أنه جعل فاعل الحُسبان النبي ﷺ؛ لتقدم ذكره ﷺ في قوله "وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ"، وتقديرُه: لا يَحسبنَّ محمدٌ الذين كفروا مُعجزين، و"الذين" و"مُعجزين" مفعولا حسب. ويجوز أن يكون فاعل الحسبان "الذين كفروا" على أن يكون المفعول الأول محذوفا، تقديره: لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم مُعجزين"، وحجة من قرأ بالتاء أنه

---

(١) النشر في القراءات العشر لابن الجزري ٢/٢٣٢، ٢٣٣.

(٢) معاني القراءات للأزهري ٢/٢١١.

(٣) النشر في القراءات العشر لابن الجزري ٢/٢٣٣.

(٤) الكشف عن وجوه القراءات السبع ٢/١٤٢.

ظاهر النصّ على الخطاب للنبي ﷺ، وهو الفاعل، و"الذين كفروا" و"معجزين" مفعولا حسب"[1].

التفسير:

هذا وعد من الله الملك الحق المبين، وأصدقِ القائلين لخليله محمد ﷺ وأمته من بعده، الذين آمنوا بالله ورُسله وعملوا الصالحات، بالنصر والتمكين والغلبة لهم ولدين الإسلام الذي ارتضاه تبارك وتعالى لهم، وأن يجعلهم خُلفاء الأرض، وأئمة الناس، وأصحاب الولاية ونفوذ الكلمة، كما استخلف الذين من قبلهم من المؤمنين السابقين، كبني إسرائيل ومن قبلهم، ووعدهم بالأمن بعد الخوف، إن هم عبدوا الله تعالى ولم يُشركوا به شيئا، وحققوا التوحيد قولا وعملا.

وقال تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [3].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [6].

---

(١) المرجع السابق ١٤٢/٢، ١٤٣.

(٢) سورة الحج ٤٠، ٤١.

(٣) سورة الروم: ٤٧.

(٤) سورة غافر: ٥١.

(٥) سورة القصص ٥، ٦.

(٦) سورة الأنفال: ٢٦.

قوله تعالى: ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾، وهو الدين الحق، دين الإسلام، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (٢).

عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: "والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي، ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار"(٣).

فدين الله تعالى الذي ارتضاه، وفطر الناس عليه من لدُن آدم عليه السلام إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها هو الإسلام، قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾(٤).

وقال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾(٥).

وقال عن أبي الأنبياء وإمام الحنفاء إبراهيم ﷺ وابنه إسماعيل عليه السلام ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾(٦)، وقال تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾(٧).

---

(١) سورة آل عمران: ١٩.

(٢) سورة آل عمران: ٨٥.

(٣) صحيح مسلم – كتاب الإيمان– باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى – حديث رقم ١٥٣.

(٤) سورة الروم: ٣٠.

(٥) سورة يونس ٧٢.

(٦) سورة البقرة: ١٢٨.

(٧) سورة البقرة: ١٣٢، ١٣٣.

وقال تعالى عن كليمه موسى عليه السلام: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾، هذا شرط التمكين الأعظم، وسبب الأمن في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [2].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم، قلنا: يا رسول الله، أينا لا يظلم نفسه؟ قال: "ليس كما تقولون لم يلبسوا إيمانهم بظلم بشرك، أولم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم"[3].

والتوحيدُ هو دعوة الأنبياء عليهم السلام، وهو حقُّ الله الأعظمُ على خلقه

فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: "بينا أنا رديف النبي ﷺ ليس بيني وبينه إلا أخرة الرحل، فقال: يا معاذ بن جبل، قلت: لبيك رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة ثم قال: يا معاذ، قلت: لبيك رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة ثم قال: يا معاذ، قلت: لبيك رسول الله وسعديك، قال: هل تدري ما حق الله على عباده؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: حق الله على عباده أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئا. ثم سار ساعة، ثم قال: يا معاذ بن جبل، قلت: لبيك رسول الله وسعديك، فقال: هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوه؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: حق العباد على الله أن لا يعذبهم"[4].

قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، أي: ومن كفر بالله تعالى، وجحده، وجحد نعمَهُ؛ فقد خرج عن طاعة الله، وفسق عن أمره ربه، الذي أمر بتوحيده وطاعته وذكره وشكره، والله أعلم.

وقد أوفى الله بوعده لرسوله وخليله محمد ﷺ، وصحابته الأخيار، فلم يمت رسول الله ﷺ إلا بعد أن أقرَّ الله عينَه بفتح جزيرة العرب، ودان أهلها بالإسلام، وأخذ الجزية من

---

(١) سورة يونس: ٨٤.

(٢) سورة الأنعام: ٨٢.

(٣) صحيح البخاري – كتاب أحاديث الأنبياء– باب قول الله تعالى: واتخذ الله إبراهيم خليلا –حديث رقم ٣٣٦٠.

(٤) صحيح البخاري – صحيح البخاري – كتاب اللباس– باب إرداف الرجل خلف الرجل – حديث رقم ٥٩٦٧.

اليهود والنصارى والمجوس الذين كانوا بها وبأطرافها، وهادنه ملوك الأرض وعظماؤها وأهدوه، ثم بعد ذلك مكّن الله تعالى أصحاب النبي ﷺ وخلفاءه الراشدين، والأئمة المهديين، أبا بكر وعمر وعثمان وعليا ﷺ.

حتى أصبحت جزيرة العرب مهد الإسلام وعاصمة الهدى، ودانت لهم مشارق الأرض ومغاربها، بالإسلام، وحتى أصبح ملوك بني أُمَيَّة وخلفاؤها يملكون من أطراف الصين مشرقا، إلى بلاد الأندلس في أوروبا غربا. وحكموا أعظم البلاد والعباد بالإسلام، فلمّا غيروا وبدلوا، ونقصوا في الأوامر والنواهي، وزادوا في البدع والمحدثات؛ اختل أمرهم، وتفرق جمعهم، وتسلط الأعداء عليهم، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. والله المستعان.

قوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾،

هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بإقامة الصلوات المفروضات، وإيتاء الزكوات والصدقات لأهلها من الفقراء والمساكين، وطاعة رسول الله ﷺ فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه ﷺ وزجر، وأن ذلك سببٌ لرحمة الله تعالى، وكذلك مُوجِبٌ لاستمرار وبقاء تمكينهم، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ ﴾.

أي: لا تحسبنَّ أيها الرسول أن الذين كفروا بالله وبك، وخالفوا أمرك، وكذبوك معجزين في الأرض، فالله عليهم قادر، ومأواهم في الآخر النار، ولبئس المصير والمرجع، كما قال تعالى: ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ ﴾[2]، وقال تعالى عن الكفار: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۚ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[3].

ويستفاد من الآيات:

١- مَن عبد الله حق عبادته، ووحّده ولم يُشرك به شيئا؛ استخلفه ومكّنه في الأرض، وآمنه من كل خوف.

---

(١) سورة الحج ٤٠، ٤١.

(٢) سورة آل عمران: ١٩٦، ١٩٧.

(٣) سورة التوبة: ٢.

٢- كلمةُ التوحيد سببُ توحيد الكلمة.

٣- شُكْرُ الله تعالى والحمدُ له على نعمه التي لا تُحصى سببٌ لبقائها، بل زيادتها، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾ (١).

٤- كُفرُ النِّعم سببٌ لزوالها ومُوجبٌ للنِّقَم، كما قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ (٢).

قال الإمام ابن القيم في المعاصي والذنوب: ومن عقوباتها: أنها تزيل النعم الحاضرة، وتقطع النعم الواصلة، فتزيل الحاصل، وتمنع الواصل، فان نعم الله ما حفظ موجودها بمثل طاعته، ولا استُجلب مفقودها بمثل طاعته، فإن ماعنده لا يُنال إلاّ بطاعته، وقد جعل الله سبحانه لكل شيء سببا وآفة: سببا يجلبه، وآفة تبطله، فجعل أسبابَ نعمهِ الجالبةَ لها طاعَتَه، وآفاتِها المانعةَ منها معصيَتَه، فاذا أراد حفظ نعمته على عبده ألهمه رعايتها بطاعته فيها، وإذا أراد زوالها عنه خذله حتى عصاه بها"(٣).

٥- إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وطاعة الرسول ﷺ سبب للنصر على الأعداء، وصفة السعداء، وسبب لرحمة الله تعالى.

٦- إثبات عجز الكفرة والمفسدين مهما بلغوا من القوة، فإن الله تعالى بهم مُحيطٌ، وعليهم قادر، كما قال تعالى:

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ (٤)، وقال تعالى: ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ ﴾ (٥).

---

(١) سورة إبراهيم عليه السلام: ٧.

(٢) سورة النحل: ١١٢.

(٣) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن القيم ص١٢٤.

(٤) سورة البروج ١٧: ٢٠.

(٥) سورة آل عمران: ١٩٦، ١٩٧.

٧- مَن مات على الكفر فهو في النار وبئس المصير، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ ﴾[٢].

الدرس الخامس عشر

(استئذان أهل البيت والأقارب)

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾.

القراءات وتوجيهها:

(وَاخْتَلَفُوا) فِي: (ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ)فَقَرَأَ حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَخَلَفٌ وَأَبُو بَكْرٍ ثَلَاثَ بِالنَّصْبِ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِالرَّفْعِ"[٣].

قال أبو منصور: من نصب (ثلاثَ عورات) فهو يتبعُ الصفة.

المعنى: ليستئذنكم الذين ملكت أيمانكم وكذا وكذا في أوقات ثلاثَ عورات. وَمَنْ قَرَأَ (ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ)، أراد: هذه الخصال وقت العورات.

هكذا قال الفراء. وتلك الخصال قوله: (مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ) أي: هذه الأوقات ثلاث عورات واختار الفراء الرفع لهذه العلة"[٤].

---

(١) سورة البقرة: ٢١٧.

(٢) سورة آل عمران: ٩١.

(٣) النشر في القراءات العشر لابن الجزري ٢/٢٣٣.

(٤) معاني القراءات للأزهري ٢/٢١٢.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ مَّا.. ﴾، نداء من الله الرحمن لعباده أهل الإيمان يأمرهم فيه أن يُعلّموا ويأمروا خدمهم مما ملكت أيمانهم والذين لم يبلغوا الحلم، -وهم الأطفال- أن يستأذنوا عند الدخول عليهم في ثلاثة أحوال: من قبل صلاة الفجر؛ لأنه وقت النوم والراحة، ووقت خلع الثياب عند الظهيرة للقيلولة، ومن بعد صلاة العشاء؛ فهو بداية وقتِ الراحة والنوم، ووقت التجرد عن لباس اليقظة، والالتحاف بثياب النوم، وكثيرا ما يُتعاطى فيه مُقدمات الجماع، فهذه الأوقات الثلاثة مظنة كشف العورات، أما في غيرها؛ فلا حرج على الجميع؛ لأنهم كما قال تعالى ﴿ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم ﴾، أي للخدمة وغير ذلك.

قال الإمام ابن كثير: "هذه الآيات الكريمة اشتملت على استئذان الأقارب بعضهم على بعضهم، وما تقدم في أول السورة؛ فهو استئذان الأجانب بعضهم على بعض[1].

و"أخرج الطبري بسنده الحسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: (ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم) يقول: إذا خلا الرجل بأهله بعد صلاة العشاء فلا يدخل عليه خادم ولا صبي إلا بإذن حتى يصلي الغداة فإذا خلا بأهله عند صلاة الظهر فمثل ذلك.

أخرج الطبري بسنده الحسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: ثم رخص لهم في الدخول فيما بين ذلك بغير إذن يعني فيما بين صلاة الغداة إلى الظهر وبعد الظهر إلي صلاة العشاء، أنه رخص لخادم الرجل والصبي أن يدخل عليه منزله بغير إذن قال وهو قوله (ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن) فأما من بلغ الحلم فإنه لا يدخل على الرجل وأهله إلا بإذن على كل حال[2].

عن عكرمة، أن نفرا من أهل العراق قالوا: يا ابن عباس كيف ترى في هذه الآية التي أمرنا فيها بما أمرنا، ولا يعمل بها أحد؟ قول الله عز وجل يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/٧٥١.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري ١٧/٣٥٣. وانظر: موسوعة الصحيح المسبور ٣/٤٨٠.

عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم قرأ القعنبي إلى عليم حكيم قال ابن عباس رضي الله عنهما: "إن الله حليم رحيم بالمؤمنين يحب الستر، وكان الناس ليس لبيوتهم ستور ولا حجال، فربما دخل الخادم أو الولد أو يتيمة الرجل والرجل على أهله، فأمرهم الله بالاستئذان في تلك العورات، فجاءهم الله بالستور والخير، فلم أر أحدا يعمل بذلك بعدُ"(١).

"وَالْجَمْعُ بَيْنَ الرِّوَايَتَيْنِ(٢) لِابْنِ عَبَّاسٍ مُمْكِنٌ بِحَيْثُ إِنَّ الْإِذْنَ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الْبَيْتِ حِجَابٌ وَسِتْرٌ وَعَدَمَ الْإِذْنِ إِذَا يَكُونُ فِي الْبَيْتِ حِجَابٌ وَسِتْرٌ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ(٣).

قوله تعالى: ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ﴾، أي: أوقات ثلاث عورات، قال الألوسي: وإطلاق العورات على الأوقات المذكورة المشتملة عليها للمبالغة، كأنها نفس العورات، والجملة استئناف مسُوقٌ لبيان علم طلب الاستئذان في تلك الأوقات"(٤).

قوله تعالى: ﴿ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُمْ﴾، أي لخدمتكم؛ فيكثر دخولهم عليكم وخروجهم من عندكم، و"الكلام استئناف بياني، أي: إنما رفع الجناح عليهم وعليكم في الدخول بدون استئذان بعد تلك الأوقات الثلاثة؛ لأنهم طوافون عليكم، فلو وجب أن يستئذنوا؛ كان ذلك حرجا عليهم وعليكم"(٥).

وعلى هذا الوجه من المعنى – أي في كثرة الدخول والخروج من الخدم بلا استئذان – جاء الحديث عن داود بن صالح بن دينار التمار، عن أُمِّه، أن مولاتَها أرسلتها بهَرِيسَة إلى عائشة رضي الله عنها، فوجدتها تصلي، فأشارت إليَّ أن ضَعيها ، فجاءت هرةٌ، فأكلت منها، فلما انصرفت أكلت من حيث أكلت الهرة، فقالت: إن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) سنن أبي داود – كتاب الأدب– أبواب النوم – باب الاستئذان في العورات الثلاث، حديث رقم (٥١٩٢)، وحسنه العلامة الألباني في صحيح سنن أبي داود، حديث رقم ٥١٩٢.

(٢) يعني بالرواية الأخرى حديث عبيد الله بن أبي يزيد أنه سمع ابن عباس يقول: لم يؤمن بها أكثر الناس آية الإذن، وإني لآمرُ جاريتي هذه تستأذن عليَّ". سنن أبي داود – كتاب الأدب – باب الاستئذان في العورات الثلاث، حديث رقم ٥١٩١.

(٣) محمد أشرف العظيم آبادي – عون المعبود شرح سنن أبي داود ٦٦/١٤.

(٤) روح المعاني للألوسي ٤٠١/٩.

(٥) التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور ٢٩٥/١٨.

إنها ليست بنجس إنما هي من الطوافين عليكم"، وقد رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ بفضلها"(١).

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، أي: كما بيّن الله جل وعلا لكم أحكام الاستئذان وغيره؛ كذلك يبين الله لكم آياته وأدلته وشرائع دينه، والله له العلم التامُ، والحكمة البالغةُ في خلقه وأمره.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: وإذا بلغ الأطفال منكم سنَّ الاحتلام فقد بلغوا مبلغ الرجال، وأصبحوا مُكلّفين بالأحكام الشرعية، والآداب المرعية، فوجب عليهم أن يستأذنوا عند الدخول في كل الأوقات.

قال ابن العربي: "هذه الآية مبيِّنة قوله: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾، فكان الطفل مستثنى من عموم الحجبة في الآيات الأولى؛ إذا لم يظهر على العورة، ثم بين الله أن الطفل إذا ظهر على العورة، وهو بالبلوغ يستأذن، وقد كان قوله ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ كافيا لأن المستثنى طفل بصفته المختصة به، ويبقى غيره على الحَجْر، فكانت هذه الآية زيادة بيان؛ لإبانة الله في أحكامة، وإيضاح حلاله وحرامه"(٢).

وفي الحديث عن علي ﷺ عن النبي ﷺ قال: "رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يعقل"(٣).

والاحتلامُ للطفلِ واحدةٌ من ثلاث علامات يحصلُ بها بلُوغُه، والعلامة الثانية بلُوغُه سنَّ الخامسة عشرة كما يدلُّ لذلك حديث ابن عُمر رضي الله عنهما "أن رسول الله ﷺ عرضه يوم أحد، وهو ابن أربع عشرة سنة، فلم يُجزني ثم عرضني يوم الخندق، وأنا ابن خمس عشرة سنة، فأجازني"، قال نافع فقدمت على عمر بن عبد العزيز وهو

---

(١) سنن أبي داود – كتاب الطهارة– باب سؤر الهرة – حديث رقم ٧٦. وصححه العلامة الألباني في صحيح سنن أبي داود، حديث رقم ٧٦.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي المالكي ٤١٨/٣.

(٣) سنن أبي داود – كتاب الحدود – باب في المجنون يسرق أو يصيب حدا – حديث رقم ٤٤٠٣. وصححه العلامة الألباني في صحيح سنن أبي داود، حديث رقم ٤٤٠٣.

خليفة، فحدثته هذا الحديث فقال: "إن هذا لحد بين الصغير والكبير، وكتب إلى عماله أن يفرضوا لمن بلغ خمس عشرة"(١).

والعلامة الثالثة إنبات الشعر الخشن حول القُبُل والفرج، ويدُلّ له حديث عطية القرظي، قال: "كنت من سبي بني قريظة، فكانوا ينظرون، فمن أنبت الشعر قُتل، ومن لم يُنبت لم يقتل، فكنت فيمن لم ينبت"... وقال: "فكشفوا عانتي، فوجدوها لم تنبت، فجعلوني من السبي"(٢).

وتزيدُ الجاريةُ علامة رابعة، وهي بلوغ الحيضِ(٣)، كما قال ﷺ:" "لا يقبل الله صلاة حائض إلا بخمار"(٤).

وأخرج الطبري بسنده الحسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أما من بلغ الحلم فإنه لا يدخل على الرجل وأهله يعني من الصبيان الأحرار إلا بإذن على كل حال وهو قوله (وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم)" (٥).

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، يقول: هكذا يبين الله لكم أحكامه، وشرائع دينه؛ كما بين لكم أمرَ هؤلاء الأطفال في الاستئذان بعد البلوغ، والله عليم بما يصلح خلقه وغير ذلك من الأشياء، حكيم في تدبيره خلقه(٦).

قوله تعالى: ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾.

---

(١) صحيح البخاري – كتاب الشهادات – باب بلوغ الصبيان وشهادتهم – حديث رقم ٢٦٦٤.

(٢) سنن أبي داود – كتاب الحدود– باب في الغلام يصيب الحد – حديث رقم ٤٤٠٤. وصححه العلامة الألباني في صحيح سنن أبي داود، حديث رقم ٤٤٠٤.

(٣) باختصار، ومن أراد الاستزادة يرجع للمغني لابن قدامة ٣٤٥/٤ وما بعدها.

(٤) سنن أبي داود – كتاب الصلاة – باب المرأة تصلي بغير خمار – حديث رقم ٦٤١. وصححه العلامة الألباني في صحيح سنن أبي داود، حديث رقم ٦٤١.

(٥) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري ٣٥٧/١٧. وموسوعة الصحيح المسبور للدكتور حكمت بشير ٤٨١/٣.

(٦) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري ٣٥٩/١٧.

أي: والعجائز من النساء اللاتي قعدن عن الولد والاستمتاع والشهوة ليأسهنَّ وكِبَرِهنَّ فلا يطمعن في الرجال، ولا يطمع بهن الرجال، فلا حرج عليهنَّ ولا إثم أن يضعن بعض ثيابهنَّ كالرداء الذي يكون فوق الثياب، غير مُتبرجات بزينة.

قال القرطبي: "فإن ذلك من أقبح الأشياء، وأبعده عن الحق، والتبرج: التكشف والظهور للعيون، ومنه: "بروج مشيدة" و"بروج السماء والأسوار" أي لا حائل دونها يسترها"(١).

وأخرج الطبري بسنده الحسن عن علي بن أبي طلحة عن أبي عباس رضي الله عنهما قوله (والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً) وهي المرأة لا جناح عليها أن تجلس في بيتها بدرع وخمار، وتضع عنها الجلباب، ما لم تتبرج لما يكره الله وهو قوله (فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة) ثم قال "وأن يستعففن خير لهنَّ"(٢).

قوله تعالى: ﴿ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ﴾، أي: وتستُّرُهُنَّ بعدم وضع ثيابهنَّ، وإن كان جائزا، فهو خير لهنّ وأفضل.

والله سميع لأقوالكم ولكل شيء، عليمٌ بأعمالكم، وبما تخفيه صدوركم.

ويستفاد من الآيات:

١- وجوب تأديب الأهل بالآداب الشرعية والأحكام المرعية، كما في آية العورات الثلاث.

٢- إذا احتلم الطفلُ فقد بلغ مبلغ الرجال، ووجب عليه الاستئذان.

٣- إذا كبرت المرأة وانقطع عنها المحيضُ، وأصبحت لا تُشتهى للنكاح؛ جاز لها أن تضع من ثيابها على التفسير المذكور آنفا، وإن أخذت بالعزيمة كغيرها من النساء فهو خيرٌ لها.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٥/٣٤٠. والمحرر الوجيز لابن عطية ٤/١٩٥.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري ١٧/٣٦٠. وانظر: موسوعة الصحيح المسبور ٣/٤٨١، ٣٨٢.

الدرس السادس عشر

(رفع الحرج عن أصحاب الأعذار)

قال الله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

التفسير:

"لما أتم سبحانه ما ذكر من حرمات البيوت المستلزمة لصيانة الأبضاع على وجه يلزم منه إحراز الأموال، أتبعه ما يباح من ذلك للأكل الذي هو من أجلّ مقاصد الأموال اجتماعاً وانفراداً"(١).

والمعنى: ليس على العميان ولا ذوي العرج، ولا المرضى، ولا أصحاب العاهات والزمنى إثمٌ في ترك ما لا يقدرون عليه، كالجهاد في سبيل الله وغيره، كما قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ ﴾(٢). وقال تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾(٣).

ولا إثم –كذلك– عليكم أيها المؤمنون أن تأكلوا من البيوت التي لكم ولأزواجكم ولعيالكم، أوبيوت آبائكم، أو بيوت أمهاتكم، أو إخوانكم أو أخواتكم أو أعمامكم أو

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ٣١٥/١٣.

(٢) سورة التوبة: ٩١.

(٣) سورة الفتح: ١٧.

عماتكم أو أخوالكم أو خالاتكم، أو البيوت التي وُكّلتم بحفظها في غيبة أهلها بإذنهم، أو بيوت أصدقائكم وأصحابكم؛ إذا علمتم أن ذلك لا يشق عليهم ولا يكرهونه.

ولا شك أن بيوت الأبناء داخلة في قوله تعالى (بُيُوتِكُمْ)؛ لما جاء في الحديث عن جابر بن عبد الله أن رجلا قال: يا رسول الله إن لي مالا وولدا، وإن أبي يريد أن يجتاح مالي، فقال: "أنت ومالك لأبيك"(١).

قال الإمام ابن القيم: "واللام في الحديث ليست للملك قطعا وأكثرهم يقول ولا للإباحة... ومن يقول هي للإباحة أسعد بالحديث، وإلا تعطلت فائدته ودلالته"(٢).

وأخرج الطبري بسنده الحسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (ليس عليكم جناح أن تأكلوا من بيوتكم) إلي قوله (أو أشتاتا) وذلك لما أنزل الله (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) فقال المسلمون: إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل، والطعام من أفضل الأموال فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد فكف الناس عن ذلك فأنزل الله بعد ذلك (ليس على الأعمى حرج) إلى قوله (أو ما ملكتم مفاتحه).

وأخرج الطبري بسنده الحسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله (أو ما ملكتم مفاتحه) وهو الرجل يوكل الرجل بضيعته فرخص الله له أن يأكل من ذلك الطعام والتمر ويشرب اللبن.

وأخرج الطبري بسنده الحسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: كانوا يأنفون ويتحرجون أن يأكل الرجل الطعام وحده حتى يكون معه غيره فرخص الله لهم فقال (ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتا) (٣).

ففي الآية رخصةٌ من الله تعالى أن يأكل الرجل وحده، ومع الجماعة، ولا شك أن الطعام مع الجماعة أفضل، وفيه البركةٌ، فعن وحشي بن حرب، عن أبيه، عن جده، أن أصحاب النبي ﷺ قالوا: يا رسول الله إنا نأكل ولا نشبع، قال: "فلعلكم تفترقون؟ " قالوا:

---

(١) سنن ابن ماجه – كتاب التجارات– باب ما للرجل من مال ولده – حديث رقم ٢٢٩٢، وصححه العلامة الألباني في صحيح سن ابن ماجة– حديث رقم ٢٣٢١.

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم ١١/١٠.

(٣) موسوعة الصحيح المسبور للدكتور حكمت بشير ٤٨٢/٣، ٢.

نعم، قال: "فاجتمعوا على طعامكم، واذكروا اسم الله عليه يبارك لكم فيه " قال أبو داود: "إذا كنت في وليمة فوضع العشاء فلا تأكل حتى يأذن لك صاحب الدار "(١).

قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ﴾، أي: إذا دخلتم بيوتا مسكونة أو غير مسكونة، أو بيوتكم، أو بيوت غيركم، فسلموا بتحية الإسلام، على أنفسكم وعلى غيركم، وهي "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته"، أو: السلام علينا وعلى عباد الصالحين؛ إذا لم يكن ثمَّ أحدٌ، وتحية السلام هي تحية آدم عليه السلام، وتحية ذريته من بعده.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "خلق الله آدم على صورته، طوله ستون ذراعا، فلما خلقه قال: اذهب فسلم على أولئك، النفر من الملائكة، جلوس، فاستمع ما يحيونك، فإنها تحيتك وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه: ورحمة الله، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقص بعد حتى الآن "(٢).

قال ابن العربي: القول بالعموم في البيوت هو الصحيح، ولا دليل على التخصيص، وأطلق القول ليدخل تحت هذا العموم؛ كل بيت كان للغير أو لنفسه، فإذا دخل بيتا لغيره استأذن كما تقدم، فإذا دخل بيتا لنفسه سلّم كما وردالخبر"(٣).

وأخرج الطبري، قال حدثنا الحسن، قال أخبرنا عبد الرزاق، قال أخبرنا معمرٌ عن الحسن في قوله (فسلموا على أنفسكم) أي ليسلم بعضكم على بعض كقوله:(ولا تقتلوا أنفسكم). وسنده صحيح"(٤).

قال مجاهد: إذا دخلت المسجد فقل: السلام على رسول الله،وإذا دخلت على أهلك فسلم عليهم،وإذا دخلت بيتا ليس فيه أحد فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين"(٥).

---

(١) سنن أبي داود – كتاب الأطعمة باب في الاجتماع على الطعام – حديث رقم. وحسنه العلامة الألباني حديث رقم ٣٧٦٤.

(٢) البخاري – كتاب الاستئذان– باب بدء السلام –حديث رقم ٦٢٢٧.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤٢٧/٣. وانظر: الجامع لأحكام القرآن ١٥للقرطبي /٣٥٥

(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري ٣٨١/١٧. وموسوعة الصحيح المسبور للدكتور حكمت بشير ٤٨٣/٣.

(٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٧٦/٤.

والسَّلام تحيةُ المسلمين، وعباد الله المؤمنين، وتحية أهل الجنة، قال تعالى: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾[3].

فينبغي للمسلم أن يُفشي السلام، وأن يُحيي به، وإذا حُيي به ردَّ بأفضل مما حُيي به أو رَدّه بمثله، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ﴾[4].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم"[5].

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: إن السلام اسم من أسماء الله، وضعه الله في الأرض، فأفشوه بينكم، إن الرجل إذا سلم على القوم فردوا عليه كانت له عليهم فضلُ درجة، لأنه ذكرهم السلام، وإن لم يُردّ عليه رد عليه من هو خير منه وأطيبُ"[6].

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾، أي: هكذا يُفصّل الله لكم معالم دينكم؛ فيبينها لكم، كما فصل لكم في هذه الآية، ما أحل لكم فيها، وعرفكم سبيل الدخول على من تدخلون عليه؛ لعلكم تعقلون، يقول: لكي تفقهوا عن الله أمره ونهيه وأدبه"[7].

---

(١) سورة الأحزاب: ٤٤.

(٢) سورة الواقعة: ٢٥، ٢٦.

(٣) سورة الرعد: ٢٣، ٢٤.

(٤) سورة النساء: ٨٦.

(٥) صحيح مسلم – كتاب الإيمان باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، حديث رقم٥٤.

(٦) الأدب المفرد للبخاري – باب من لم يرد السلام – حديث رقم ١٠٣٩. وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع، حديث رقم ١٠٣٩.

(٧) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري ٣٨٤/١٧.

ويستفاد من الآيات:

١- رفع الحرج عن أصحاب العاهات والأمراض.

٢- جواز الأكل من بيوت الآباء والأمهات والإخوة والأخوات والأعمام والعمات والأخوال والخالات، و الأصدقاء، وما وُكل عليه الرجلُ، فهو حلال كطعامه في بيته.

٣- جوازُ طعام المنفرد كجواز الطعام مع الجماعة

٤- استحباب التحية الطيبة وهي السلامُ، وأنها سببٌ للخير والبركة.

الدرس السابع عشر

(تعظيم النبي ﷺ وإجلاله من الإيمان)

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾.

القراءات وتوجيهها:

قوله تعالى ﴿يُرْجَعُونَ﴾ قَرَأَ يَعْقُوبُ بِفَتْحِ حَرْفِ الْمُضَارَعَةِ وكَسْرِ الْجِيمِ فِي جَمِيعِ الْقُرْآنِ"(١).

قال أبو منصور: مَنْ قَرَأَ (وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ) فهو علي أنه مفعول لم يسم فاعله والفعل متعدٍّ، يقال: رَجَعْتُه فَرَجَعَ. وَمَنْ قَرَأَ (يَرجِعون) جعلهم فاعلين، والفعل حينئذ لازمٌ"(٢).

التفسير:

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ﴾،

جُمْلَةُ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ مُسْتَأْنَفَةٌ مَسُوقَةٌ لِتَقْدِيرِ مَا تَقَدَّمَهَا مِنَ الْأَحْكَامِ، وَ «إِنَّمَا» مِنْ صِيَغِ الْحَصْرِ.

وَالْمَعْنَى: لَا يَتِمُّ إِيمَانٌ وَلَا يَكْمُلُ حَتَّى يَكُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجُمْلَةُ (وَإِذا كانُوا مَعَهُ عَلى أَمْرٍ جامِعٍ) مَعْطُوفَةٌ عَلَى آمَنُوا داخلة فِي حَيِّزِ الصِّلَةِ، أَيْ: إِذَا كَانُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ، أَيْ: عَلَى أَمْرِ طَاعَةٍ يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهَا، نَحْوَ الْجُمُعَةِ وَالنَّحْرِ وَالْفِطْرِ وَالْجِهَادِ، وَأَشْبَاهِ ذَلِكَ، وَسُمِّيَ الْأَمْرُ جَامِعًا: مُبَالَغَةً لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوه(٣).

وإن من يفعل ذلك – أي الاستئذان من رسول الله ﷺ – فهو من المؤمنين الكاملين. (٤).

---

(١) النشر في القراءات العشر لابن الجزري ٢٠٨/٢.

(٢) معاني القراءات للأزهري ٢١٢/٢.

(٣) فتح القدير للشوكاني ٧٧/٤.

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٧٧/٤.

قال الإمام الطبري: حدثني الحسن، قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا معمر عن الزهري في قوله (وإذا كانوا معه على أمر جامع) قال: هو الجمعة إذا كانوا معه لم يذهبوا حتى يستأذنوه" وسنده صحيح(١).

قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، أي: فإذا استأذنك -أيها الرسول- المؤمنون الذين لا ينصرفون إلا بإذنك، وبعد استشارتك لبعض حاجاتهم وأمورهم، فأذن لمن شئت منهم ممن طلب الإذن في الانصراف لعذر، واستغفر لهم الله، إن الله غفور لذنوب عباده التائبين، رحيم بهم.

"وكان من أعمال المنافقين أن يحضروا هذه المجامع، ثم يتسللوا منها تفاديا من عمل يشق أو سآمة من سماع كلام لا يهتبلون به، فنعى الله عليهم فعلهم هذا، وأعلم بمنافاته للإيمان، وأنه شعار النفاق، بأن أعرض عن وصف نفاق المنافقين واعتنى باتصاف المؤمنين الأحقَّاء بضد صفة المنافقين، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ﴾ ولذلك جاء في أواخر هذه الآيات قوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذاً ﴾(٢).

قوله تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ ﴾، أي: لا تتعرضوا لما يُسخط رسول الله ﷺ، فإن دعاءه ﷺ موجبٌ للعقوبة، ليس كدعاء غيره، وكذلك، لا تُنادوا رسول الله ﷺ بالغلظة والجفاء كما ينادي بعضكم بعضا، بل بالخضوع والتذلل، وقول: يا رسول الله، يا نبي الله، بأعظم الصفات التي يحبها ﷺ، وكذلك لا تتأخروا عند استدعائه لكم لأي أمر.

والآية الكريمة شاملة لهذه المعاني، ولا تضاد بينها؛ فإنها تُحمل على الجميع، والقرآن حَمال أوجه، وإن كان الأول أقرب للسياق، فإن المؤمنين لا ينصرفون حتى يستأذنوا رسول الله ﷺ، ولذلك عظُم إيمانهم، ودعا لهم رسول الله ﷺ.

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري ٣٨٦/١٧. موسوعة الصحيح المسبور للدكتور حكمت بشير ٤٨٤/٣.

(٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٤٥/١٨.

وأما المنافقون؛ فإنهم يتسللون بغير إذن، فربما دعا عليهم ﷺ.

وبعد هذه الآيـــــة، قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، ولهذا قال الإمام الطبري: وأولى التأويلين بالصواب عندي؛ التأويل الـذي قاله ابن عباس ، وذلك أن الذي قبل قوله ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ نهي من الله المؤمنين أن يأتوا من الانصراف عنه فـي الأمـر الـذي يجمـع جميعهم، ما يكرهه، والذي بعده وعيد للمنصرفين عنه بغير إذنه ﷺ، فالذي بينهما بـأن يكون تحذيرا لهم سُخطه، أن يضطره للدعاء عليهم، أشبه من أن يكون أمرا لهم بما لـم يجْرِ لهم ذكر من تعظيمه وتوقيره بالقول والدعاء. (١).

وروى الطبري بسنده عن ابن عباس فـي قولـه: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ دعوة الرسول ﷺ عليكم موجبة فاحذروها"(٢).

وأما تعظيم النبي ﷺ وتوقيره وتشريفه؛ ووجوب إجابته ﷺ فهو داخل تحت هذه الآيـة، وقد قال الله تعـالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ (٣).

وقـــال تعـــالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ ﴾ (٤).

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري ٣٨٩/١٧، ٣٩٠.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري ٣٨٨/١٧.

(٣) سورة الحجرات: ٢: ٤.

(٤) سورة الفتح ٨، ٩.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[1].

وقد رجح الإمام ابن كثير [2] هذا المعنى في هذه الآية، والله أعلم.

وأخرج الطبري عن عبد الرزاق بسنده الصحيح عن قتادة في قوله ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم﴾ قال: أمرهم الله أن يفخموه ويشرفوه.

وأخرج الطبري بسنده الصحيح عن مجاهد ﴿كدعاء بعضكم بعضاً ﴾ قال: أمرهم أن يقولوا: يا رسول الله في لين وتواضع ولا يقولوا: يا محمد في تجهم"[3].

قوله تعالى: ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾، لما مدح المؤمنين بالله ورسوله الذين إذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه، توعد من لم يفعل ذلك، وذهب من غير استئذان، فهو وإن خفي عليكم بذهابه على وجه خفي، وهو المراد بقوله ﴿ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ ﴾، أي يلوذون وقت تسللهم وانطلاقهم بشيء يحجبهم عن العيون، فالله يعلمهم، وسيجازيهم على ذلك أتم الجزاء، ولهذا توعدهم بقوله ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ ﴾، أي: يذهبون إلى بعض شؤونهم عن أمر الله ورسوله، فكيف بمن لم يذهب إلى شأن من شؤنه، وإنما ترك أمر الله من دون شغل له"[4].

قوله تعالى: ﴿ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾، أي: في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعةٍ، أو يصيبهم عذاب أليم في الدنيا بقتل أو حدٍّ أو حبس أو نحو ذلك"[5].

---

(١) سورة الأنفال: ٢٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٧٨/٤.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري ٣٨٩/١٧. وموسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور للدكتور حكمت بشير٤٨٤/٣.

(٤)تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص٦٠٧.

(٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٧٩/٤.

وفي الصحيح عن أم المؤمنين عائشة –رضي الله عنها– أن رسول الله ﷺ قال: " من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد "(١).

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ، قال: "كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى"، قالوا: يا رسول الله، ومن يأب؟ قال: "من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى"(٢).

عن أبي هريرة ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "إنما مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد نارا، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها، فجعل ينزعهن ويغلبنه فيقتحمن فيها، فأنا آخذ بحجزكم عن النار، وهم يقتحمون فيها"(٣).

قوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾، يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، وأنه عالم الغيب والشهادة، وهو عالم بما العباد عاملون في سرهم وجهرهم، فقال: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾، وقد للتحقيق(٤).

وبيّن جلّ وعلا في هذه الآية الكريمة أنه يعلم ما عليه خلقه، أي من الطاعة والمعصية وغير ذلك وَهَذَا الْمَعْنَى الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ مَعَ أَنَّهُ مَعْلُومٌ بِالضَّرُورَةِ مِنَ الدِّينِ، جَاءَ مُبَيَّنًا فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا

---

(١) صحيح مسلم – كتاب الأقضية– باب نقض الأحكام الباطلة –حديث رقم ١٧١٨.

(٢) صحيح البخاري – كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة– باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ – حديث رقم ٧٢٨٠.

(٣) صحيح البخاري – كتاب الرقاق– باب الانتهاء عن المعاصي – حديث رقم ٦٤٨٣.

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٧٩/٤.

كَسَبَتْ ﴾ أَيْ: هُوَ شَهِيدٌ عَلَى عِبَادِهِ بِمَا هُمْ فَاعِلُونَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ. وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ (١).

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾، أي: ويوم يُرجع العباد إليه في الآخرة يُخبرهم بعملهم ويُجازيهم عليه، والله بكل شيء عليم، لا تخفى عليه أعمالهم وأحوالهم"(٢).

ويستفاد من الآيات:

١- الاستئذان من النبي ﷺ وأئمة المسلمين من بعده في أي أمر جامع من الواجبات الشرعية، والأحكام المرعية، ومن صفات المؤمنين.

٢- تقريرُ حقِّ النبي ﷺ ووجوب تعظيمه، وذاك بدعوته بأحبِّ الصفات إليه.

٣- حُرمةُ الإساءة إلى النبي ﷺ وأذيته، وأنها من كبائر الذنوب، وقد تُخرجُ فاعلها من الملّة.

٤- حُرمةُ نداء النبي ﷺ باسمه المجرد.

٥- معصيةُ النبي ﷺ ومُخالفةُ أمرِه سببٌ للفتنة والعذاب الأليم.

٦- التذكير والموعظة بسعة علم الله تعالى، وأنه بكل شيء عليم؛ للحض على مراقبة الله تعالى وتعظيم نبيه ﷺ، وذلك بطاعته فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وألا يُعبد الله إلا بما شرع ﷺ.

---

(١) أضواء البيان للشنقيطي ٦/٢٨٣.

(٢) التفسير الميسر ص٣٥٩.

الخاتمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، فبعد التأمل والنظر في آيات هذه السورة الكريمة، نحيل القارئ الكريم إلى ما سبق إيراده في مقاصد هذه السورة العظيمة، فهي تُعد أبرز النتائج المستخلصة من دراستها.

التوصيات:

يوصي الباحث أن تُجعل هذه السورة العظيمة منهج حياة، عن طريق تحويل الحكم والأحكام والمبادئ العظام التي اشتملت عليها إلى برامج للتربية والتوجيه والإرشاد في البيوت والمدارس والجامعات.

وقد سبق ذكْرُ ما روى الإمام الطبري بسنده عن الأعمش عن شقيق، قال: "استعمل عليٌّ ابنَ عباس رضي الله عنهما على الحج، قال: فخطب الناس خطبة، لو سمعها الترك والروم لأسلموا، ثم قرأ عليهم سورة النور، فجعل يفسرها"[1]، مما يدلّ على أهمية هذه السورة، ولذلك قرأها وفسرها ابن عباس رضي الله عنهما في هذا المجمع العظيم.

هذا ما تيسر إيراده مما اشتملت عليه هذه السورة العظيمة من الحكم والأحكام، والمعاني العظام، فما كان من صواب فبتوفيق الله تعالى، وما كان من خطأ فمن نفسي ومن الشيطان، والله المستعان، وعليه التكلان، والحمد لله رب العالمين.

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١/٧٥.

المصادر والمراجع:

١- أحكام القرآن – أبو بكر ابن العربي – تحقيق محمد عبد القادر عطا – الطبعة الثالثة – ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م- دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان.

٢- الآداب الشرعية – عبد الله محمد بن مفلح المقدسي- تحقيق شعيب الأرناؤوط- عمر القيام- الطبعة الثالثة- ١٤١٩هـ-١٩٩٩م- مؤسسة الرسالة – بيروت- لبنان.

٣- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن – الشيخ الشنقيطي ٧/٣ في تفسير سورة هود ﷺ – تحقيق بكر أبو زيد – الطبعة الأولى -١٤٢٦هـ – دار عالم الفوائد – مكة المكرمة – السعودية.

٤- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن – الشيخ الشنقيطي ٧/٣ في تفسير سورة هود ﷺ – تحقيق بكر أبو زيد – الطبعة الأولى -١٤٢٦هـ – دار عالم الفوائد – مكة المكرمة – السعودية.

٥- إعراب القرآن – أبو جعفر النحاس – تحقيق د.زهير غازي زاهد- دط-١٤٠٩هـ- ١٩٨٨م- عالم الكتب- بيروت- لبنان.

٦- أنوار التنزيل وأسرار التأويل – أبو سعيد البيضاوي – تحقيق محمد المرعشلي – الطبعة الأولى- ١٤١٨هـ- دار إحياء التراث العربي – بيروت- لبنان.

٧- أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير- أبو بكر جابر بن موسى الجزائري- الطبعة الخامسة- ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م- مكتبة العلوم والحكم- المدينة المنورة- السعودية.

٨- البحر المحيط في التفسير – أبو حيان الأندلسي – تحقيق عادل عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض – الطبعة الأولى- ١٤٢٢هـ-٢٠٠١- دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان.

٩- البيان في عد آي القرآن – أبو عمرو الداني – تحقيق غانم قدوري الحمد – الطبعة الأولى- ١٤١٤هـ-١٩٩٤م- مركز المخطوطات والتراث – الكويت.

١٠- التحرير والتنوير – محمد الطاهر بن عاشور ٢٣٦/١٢- دط- ١٩٨٤م- طبعة الدار التونسية للنشر – تونس.التسهيل لعلوم التنزيل لابن جُزيّ الكلبي

١١- تفسير الإمام الشافعي – جمع الدكتور أحمد الفران – الطبعة الأولى- ١٤٢٧هـ- دار التدمرية – الرياض – السعودية.

١٢- تفسير القرآن العظيم – ابن كثير – تحقيق أ.د/ حكمت بشير- الطبعة الأولى – ١٤٣١ه دار ابن الجوزي – الرياض – السعودية.
١٣- تفسير القرآن العظيم- أبو محمد الرازي ابن أبي حاتم- تحقيق أسعد محمد الطيب – الطبعة الثالثة- ١٤١٩هـ- مكتبة نزار مصطفى الباز- المملكة العربية السعودية.
١٤- التفسير الميسر- إعداد نخبة من العلماء – الطبعة الثالثة – ١٤٣٢هـ- مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف- المدينة المنورة – السعودية.
١٥- تناسق الدرر في تناسب السور – جلال الدين السيوطي – دط- ٢٠٠٠م- دار ومكتبة الهلال – بيروت- لبنان.
١٦- تهذيب اللغة – أبو منصور الأزهري الهروي – تحقيق محمد عوض مرعب- الطبعة الأولى- ٢٠٠١م- دار إحياء التراث العربي- بيروت- لبنان.
١٧- جامع البيان في تأويل آي القرآن – محمد بن جرير الطبري – تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي – الطبعة الأولى- ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م – دار عالم الكتب – الرياض – السعودية.
١٨- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه (صحيح البخاري) – أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري – تحقيق محمد زهير الناصر- ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي- الطبعة الأولى- ١٤٢٢هـ- دار طوق النجاة-بيروت- لبنان.
١٩- الجامع لأحكام القرآن – أبو عبد الله القرطبي – تحقيق د. عبد الله التركي – الطبعة الأولى- ١٤٢٧هـ- مؤسسة الرسالة – بيروت – لبنان.
٢٠- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي – محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية – الطبعة الأولى- ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م- دار الكتب العلمية- بيروت – لبنان.
٢١- الجواهر الحسان في تفسير القرآن- أبو زيد الثعالبي- تحقيق الشيخ م حمد علي معوض، والشيخ عادل أحمد عبد الموجود – الطبعة الأولى- ١٤١٨هـ- دار إحياء التراث العربي – بيروت- لبنان.
٢٢- الحجة في القراءات السبع – أبو عبد الله الحسن بن أحمد بن خالويه- تحقيق عبد العال سالم مكرم- الطبعة الرابعة- ١٤٠١هـ-دار الشروق- بيروت- لبنان.

٢٣- الحجة للقراء السبعة – أبو علي الفارسي- تحقيق بدر الدين قهوجي – بشير جويجابي- الطبعة الثانية- ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م- دار المأمون للتراث- دمشق- سوريا- بيروت- لبنان.
٢٤- ديوان عنترة بن شداد – بدون بيانات.
٢٥- رسالة تحكيم القوانين – الإمام محمد بن إبراهيم آل الشيخ – تحقيق د. سفر الحوالي.
٢٦- سنن ابن ماجه – أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه – تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي- دار إحياء الكتب العربية- فيصل عيسى البابي الحلبي- القاهرة – مصر.
٢٧- سنن أبي داود- أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني – تحقيق شعيب الأرناؤوط- محمد كامل قره بللي- الطبعة الأولى- ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م- دار الرسالة العالمية- بيروت- لبنان.
٢٨- سنن الترمذي- محمد بن عيسى الترمذي- تحقيق أحمد محمد شاكر، محمد فؤاد عبد الباقي- الطبعة الثانية- ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م- مكتبة مصطفى البابي الحلبي- مصر.
٢٩- السنن الكبرى – أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني النسائي- تحقيق حسن عبد المنعم شلبي-الطبعة الأولى- ١٤٢١هـ-٢٠٠١م- مؤسسة الرسالة- بيروت- لبنان.
٣٠- الصارم المسلول على شاتم الرسول – ابن تيمية – تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد – طبعة الحرس الوطني السعودي- السعودية.
٣١- صحيفة علي بن أبي طلحة – تحقيق راشد عبد المنعم – الطبعة الأولى- ١٤١١هـ- مكتبة السنة- القاهرة- مصر.
٣٢- عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ – السمين الحلبي – تحقيق عبد السلام أحمد الحلبي – الطبعة الأولى – ١٩٩٥م- دار الكتب الوطنية – بنغازي – ليبيا.
٣٣- عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ – السمين الحلبي – تحقيق عبد السلام أحمد الحلبي – الطبعة الأولى – ١٩٩٥م- دار الكتب الوطنية – بنغازي – ليبيا.
٣٤- عون المعبود شرح سنن أبي داود ت- محمد أشرف العظيم آبادي – الطبعة الثانية – ١٤١٥هـ- دار الكتب العلمية – بيروت- لبنان.

٣٥- فتح الباري – ابن حجر العسقلاني – علق عليها الإمام ابن باز – تصحيح وإشراف محب الدين الخطيب – الطبعة الأولى- ١٤٠٧هـ – دار الريان للتراث- القاهرة – مصر.
٣٦- فتح القدير- محمد بن علي الشوكاني – تحقيق د. عبد الرحمن عميرة- الطبعة الثالثة – دار الوفاء للطباعة والنشر – المنصورة – مصر.
٣٧- الفرائد الحسان في عد آي القرآن – العلامة عبد الفتاح بن عبد الغني بن محمد القاضي- الطبعة الأولى- ١٤٠٤هـ- مكتبة الدار- المدينة المنورة- السعودية.
٣٨- القول المفيد على كتاب التوحيد –محمد بن صالح العثيمين – إشراف مؤسسة محمد عثيمين الخيرية – الطبعة الثانية – ١٤٢٤هـ- دار ابن الجوزي – السعودية.
٣٩- الكافي في فقه الإمام أحمد للإمام ابن قدامه – الطبعة الأولى-١٤١٤هـ-١٩٩٤- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان.
٤٠- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل – الزمخشري – ضبط وتصحيح مصطفى حسين – الطبعة الثالثة – ١٤٠٧هـ – دار الريان للتراث – القاهرة – مصر. دار الكتاب العربي- بيروت- لبنان.
٤١- لسان العرب- ابن منظور- تحقيق عبد الله علي الكبير وآخران- دط-دت- دار المعارف- القاهرة- مصر.
٤٢- مجاز القرآن – أبو عبيدة البصري- تحقيق محمد فؤاد سزكين- دط- ١٣٨١هـ- مكتبة الخانجي- القاهرة- مصر.
٤٣- مجموع الفتاوى – ابن تيمية – مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف – ١٤١٦هـ- السعودية.
٤٤- محاسن التأويل- محمد جمال الدين القاسمي – ضبطه وصححه: محمد باسل عيون السود – الطبعة الأولى- ١٤١٨هـ- دار الكتب العلمية – بيروت- لبنان.
٤٥- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز- أبو محمد ابن عطية الأندلسي- تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد – الطبعة الأولى- ١٤٢٢هـ- دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان.
٤٦- مختار الصحاح – أبو بكر الرازي – تحقيق محمود خاطر – طبعة جديدة – ١٤١٥هـ-١٩٩٥م- مكتبة لبنان- بيروت- لبنان.

٤٧- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين – الإمام ابن القيم – الطبعة الثانية- ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م- دار الكتاب العربي- بيروت- لبنان.
٤٨- مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور – إبراهيم بن عمر بن حسن البقاعي – الطبعة الأولى- ١٤٠٨- ١٩٨٧م- مكتبة المعارف- الرياض- السعودية.
٤٩- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير – أحمد بن محمد بن علي الفيومي – دط- دت-المكتبة العلمية – بيروت- لبنان.
٥٠- معالم التنزيل – أبو محمد البغوي الشافعي- . الطبعة الأولى- ١٤١٤هـ – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان
٥١- معاني القراءات – أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي – الطبعة الأولى- ١٤١٢هـ-١٩٩١م- مركز البحوث في كلية الآداب- جامعة الملك سعود – المملكة العربية السعودية.
٥٢- معاني القرآن وإعرابه أبو إسحاق الزجاج- تحقيق عبد الجليل شلبي- الطبعة الأولى- ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م- علم الكتب- بيروت- لبنان.
٥٣- المغني – أبو محمد موفق الدين بن قدامة المقدسي- دط-١٣٨٨هـ-١٩٦٨م- مكتبة القاهرة- مصر.
٥٤- مفردات ألفاظ القرآن- أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني – تحقيق صفوان عدنان الداودي- الطبعة الأولى- ١٤١٢هـ- دار القلم – دمشق – سورية.
٥٥- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج – أبو زكريا يحيى بن شرف النووي- الطبعة الثانية- ١٣٩٢هـ- دار إحياء التراث العربي- بيروت- لبنان.
٥٦- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج – أبو زكريا يحيى بن شرف النووي- الطبعة الثانية- ١٣٩٢هـ- دار إحياء التراث العربي- بيروت- لبنان.
٥٧- موسوعة الصحيح المسبور- أ.د. حكمت بن بشير بن ياسين- الطبعة الأولى- ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م- دار المآثر للنشر والتوزيع والطباعة- المدينة المنورة – السعودية.
٥٨- الموطأ – مالك بن أنس الأصبحي المدني- تحقيق محمد مصطفى الأعظمي- الطبعة الأولى- ١٤٢٥اهـ-٢٠٠٤م- مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان- أبو طبي – الإمارات.

٥٩- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور – إبراهيم بن عمر البقاعي – تحقيق عبد الرزاق غالب المهدي – الطبعة الأولى – ١٤١٥هـ – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان.
٦٠- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور – إبراهيم بن عمر البقاعي – تحقيق عبد الرزاق غالب المهدي – الطبعة الأولى – ١٤١٥هـ – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان.
٦١- النكت والعيون – أبو الحسن الماوردي – تحقيق السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان.
٦٢- نهاية الأرب في فنون الأدب – شهاب الدين النويري- تحقيق إبراهيم الإبياري- الطبعة الثانية- ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م- دار الكتاب اللبناني – بيروت- لبنان.
٦٣- النهاية في غريب الأثر – أبو السعادات ابن الجزري – تحقيق طاهر أحمد الزاوي- محمود الطناحي- دط-١٣٩٩هـ-١٩٧٩م- المكتبة العلمية- بيروت- لبنان.